قصي الشيخ عسكر

آخر رحلة للسندباد
المنسي
عزيزي درويش
البهلول

دار الكنوز الأدبية

أربع روايات قصيرة

آخر رحلة للسندباد

وروايات أخرى

قصي الشيخ عسكر

آخر رحلة للسندباد
وروايات أخرى

دار الكنوز الأدبية

* آخر رحلة للسندباد
المنسي
عزيزي درويش
البهلول

(أربع روايات قصيرة)

* قصي الشيخ عسكر
* الطبعة الأولى ١٩٩٥
* جميع الحقوق محفوظة
* دار الكنوز الأدبية - بيروت

آخر رحلة للسندباد

رواية قصيرة

بعد كلّ هذا العمر الطويل في الترحال

وبعد كلّ تلك السنين الطويلة من الاستقرار

عزمت على السفر.

لا شكّ في انّ التعب استهلكني عقب الرحلة السابعة، غير أنّي اكتشفت أنّ الراحة والاستقرار لم يكونا دواء اجتثّ حب الرحلة من أعماقي. كان الزواج، ومسؤولية العائلة مسكناً شغلني عن هوايتي لفترة طويلة....

انّ ما رأيته، وعايشته، أعني الأهوال المرّة، ما زالت الى هذه اللحظة تشكّل شخصيتي. ليست ماضياً كما حسبت، هي الماضي والحاضر والمستقبل. كأنّ المغامرة والتوغّل في عمق المجهول والاكتشاف الغامض تعادل السندباد نفسه، ولعلّي نمت عشرين سنة بدأت منذ نهاية رحلتي السابعة، ثمّ استفقت ففكرت مباشرة بأن ابدأ رحلة جديدة.

ربّما يفكر أحدكم، أيها السادة، أنّي أفعل كلّ هذه الأعمال كي احوز المجد والشهرة. لو كان صحيحاً ما يقال لاكتفيت بسفراتي السابقة، اذ لم يخطر ببالي منذ الرحلة الاولى ان الفت الانتباه اليّ، فانتم تعرفون جيداً، وظيفتي، وطبيعة عملي....

كنت تاجراً أجلب البضائع الغريبة من بلدانٍ بعيدة الى بلدنا أو أحمل معي بضائع يفتقرون اليها، ولمّا قبض عليّ الموت بين مخالبه في الرحلة الاولى، ثمّ نجوت، وحدث الشيء نفسه أثناء الرحلة الثانية، راقت لي اللعبة. نحن نخاف من الاشياء لأنّها بعيدة عنّا وقد أصبحت أقرب مخلوق الى الموت. دخلت الرعب، فاستهوتني اللعبة، واستحوذت على مشاعري كلّها.

لم اتردّد، وأخاف، وأنا أعرف جيدا أنّ السفر مصيري والأهوال قسمتي ونصيبي؟!

كنت اسأل نفسي مندهشاً من طول الراحة التي استغفلتني كلّ تلك السنين العشرين الماضية:

كيف خدعني الزمن... فخلت السنين أكبر من قدراتي حيث أعلنت قبل عشرين سنة عن اعتزالي لعبة الحياة والموت، اي السفر، فتزوّجت، وانجبت اطفالاً كبروا وصاروا شبّاناً. تزوجوا. وانفصلوا عنيّ،أمّا زوجتي فهي لا تستطيع مغادرة فراشها لأنّها تعاني من مرض استفحل عليها فعجزت عن مقاومته....

أخيرا أدركت غدر الزمن ....!!

آه ايها السندباد لو لم تتزوّج وتستقرّ. أبناؤك تركوك للوحدة، وغداً ترحل زوجتك. الماضي وحده لا يكفيك لتعيش على فتاته.. وفي خضمّ الأفكار يهتف بك صوت قوي..

ارحل، يا سندباد، ارحل..ارحل.. السفينة تنتظرك، فأنت لم تخلق للاستقرار لأنّك كالأغنية لا تستقر على لسان واحد!!

الصوت ذاته، صوت السفر، يدفعني لأن اعترف بانّي كنت مخطئاً، وها أنا أقرّ بخطأي عندما ظننت الزمن اتعبني فتركت حرفة التجارة عبر البحر ليستقرّ بي المقام فوق الأرض طويلاً، فاتزوج وأعيش حياة هادئة...

فهل يقبل السندباد أن يقبع في بيته وحيداً بانتظار الموت؟

كلا أيّها الأصدقاء الأعزاء... أنا لست وحيداً، فهناك البحر والسفن والمغامرة...

هكذا أيها السادة فكرت بالعودة الى السفر من جديد...

وقد أثار إعلاني دهشة الناس. قال لي ابني الأكبر: يا أبي انت كبير السن، شارفت على العقد الثامن من عمرك، فارفق بأعصابك. وقال لي أصدقائي: نحن نخشى عليك يا سندباد، البحر يظلّ شاباً، والبّحار يشيخ. نصحني كثيرون بالعدول عن قراري، لكنّ الوحدة قاتلها اللّه تقضّ مضجعي، والحنين يداهمني.

إنّ الرحلة تعني تاريخ صباي وفتوّتي، فما زادتني معارضة الأهل والأصدقاء إلا إصراراً على السفر...

لم أنس قبل الرحلة أن أزور الخليفة لأسلم عليه. استقبلني جلالته مرحّباً، وقال: إنّ دمك معجون من السفر، ثمّ شدّ على يدي وأردف: آمل أن تعود إلينا بقصّة جديدة لم نسمعها من قبل...

ثمّ ودعت ابنائي وأصدقائي، وألقيت نظرة على زوجتي المسكينة وقصدت الى احدى السفن، وبي رغبة جامحة لألتهم البحر وأحضنه بعد كلّ هذا الفراق الطويل...

السندباد آت يا بحر، وهاهو يخلّف بغداد والبصرة وراءه...

كانت هناك قوّة غريبة تحتاج جسدي فتحوّلني الى شاب مغامر لا تهمّه الحياة والموت.. بمثل تلك القوّة صعدت الى السفينة التي راحت تمخر بنا عباب الماء....

ومثلما تتحكّم الأعاصير دائماً بمصيري، فأكتشف بعد سكونها حياة عجيبة، وأشكالاً غريبة، توقعت أن يهب اعصارٌ ما يحطم السفينة، فأجد مصادفة قطعة طافية على الماء....

انتظرت المصير المحتوم. طال انتظاري، والشمس ما تزال ساطعة مشرقة. مضى على الرحلة أكثر من شهر. السفينة في عرض البحر، لا غيوم ولا عواصف، ولا شيء ينذر بالخطر....

البحّارة من حولي يشكرون اللّه على هذا الصفاء، ويحمدونه لأنّ الرياح ظلّت ساكنة، وكنت أحمد الله مثلهم، فأنا لا أقصد الهول ما لم يقصدني هو، ولا يسرّني ان يتعرض الأخرون لما يمرّ بي من متاعب....

وبين عشية وضحاها صدقت ظنوني. الهواجس انقلبت الى يقين، والهدوء كشف عن حقيقته. تلك الشمس حدّثتنا كذباً عن رحلة سعيدة. من كان يصدّق أنّ ذاك الصفاء الجميل يضمّ بين جوانحه اعصاراً هائلاً يلقي بالظلمة على الماء، فلا تهتدي العيون لأيّ مكان أبداً. عصفٌ جاء من رحم السكون، وأشدّ الأعاصير فتكاً تلك الآتية من رحم الصمت.

كنّا كالعادة نبحر بمحاذاة الساحل فدفعت الريح الهوجاء بنا بعيداً، واضطرّ القبطان الى ان يدير الدفّة وفق هواها حتّى لا تنقلب السفينة فنغرق...

عندئذ وجدنا أنفسنا في عمق سحيق من المحيط السحيق... كان هناك ظلام ورياح لفّعتنا بالضباب. استمرت الريح تدفع بنا فضاع منا حساب الزمن والمكان. جهلنا تماماً أين نحن وكم من الأيّام مرّت. بعضنا يقول لفّنا الظلام أسبوعاًلا أكثر ونحن أقرب منا إلى الشرق، بينما جادل آخر في المكان فقال: نحن أقرب إلى الشمال واعترض آخرون فنسبوا جهتنا إلى الغرب وأضافوا بأنّ العاصفة الهوجاء استمرت تدفع السفينة شهراً كاملاً...

والعلم عند اللّه وحده...

وفي يوم ما طلعت علينا الشمس. الإعصار مرّ بسلام. لم تتحطّم السفينة، وها نحن أحياء، يعانق أحدنا الآخر فرحين بالنجاة لا ينغصّ علينا فرحتنا العارمة إلا جهلنا بالمكان، ومؤونتنا التي كادت تنفد. فصلّى كل منا ركعتي شكر للّه، ودعوناه مخلصين أن يهدينا إلى معرفة اتجاهنا، وكنت اردد مع نفسي: إنّ الذي أنقذ السفينة من مخالب الرياح لقادر على أن يهدينا إلى اتجاهنا الصحيح...

على ايّة حال كنت في غرفتي أسفل السفينة أفكر بما وصلنا إليه عندما سمعت ضجة على السطح. توقّعت أن يكون أحد المسافرين عرف المكان،أو لاحت عن بعد جزيرة وسط البحر، فهلّل الآخرون فرحاً بالنبأ السعيد. وخلال لحظات تحولت الضجة إلى صراخ. لا بدّ ان مكروها ما يحدث الآن، حدّثتني بذلك نفسي،وهرعت إلى السطح، وحين كنتُ أصعد السلّم سمعتُ صوت أحد البحارة ينادي:

أيّها المسافرون القوا بأنفسكم إلى الماء قبل ان تلتهمكم مردة الفضاء..

وتناهى إلى سمعي صوت القبطان يقول: هلكنا واللّه ولا مجال في النجاة إلا الماء.

وصلت إلى السطح مبهور الأنفاس، البحارة والمسافرون فقدوا صوابهم راحوا يتحركون كالمجانين، وكأنهم لا يعرفون أين يتّجهون، قصدت القبطان استطلع عن الأمر فانتحب وصرخ: إنهم المردة الذين سبّبوا الاعصار وجرفوا السفينة إلى عمق المحيط ليبتلعونا....

رفعت رأسي إلى السماء فتيقنت من كلام الرجل. أبصرت شيئاً عجبا، شيئاً لا يصدقه العقل: في السماء تحوم، حيوانات ضخمة من دون أجنحة، بعض يرتفع ويهبط إلى الأسفل باتجاه السفينة، وبعض ما زال في عمق السماء، ولتلك الحيوانات صخب حادّ، وهدير صاخب.

ليست لي القدرة على وصف تلك الحيوانات بدقّة، غير ان البحارة يئسوا من النجاة. ان اصواتها وأشكالها بثت الرعب في النفوس، فسكتت قلوب أربعة من المسافرين وخروا موتى من ساعتهم، وصرخ القبطان وعيناه تهربان من السماء إلى البحر:

-ارموا أنفسكم بالبحر، اقفزوا قبل أن تنقضّ عليكم تلك الطيور المتوحشة، فلعلّ الحظ يحالفكم، فلا تأكلكم الحيتان..

فانصاعوا لكلامه، وقفزوا إلى الماء، كدت أفعل مثلهم، غير أنّي رأيت كواسج غريبة الشكل تهجم عليهم وتحطمهم... انتشرت دماء المسافرين فوق سطح البحر، وتناثرت كالزبد الفوار. أمام

المشهد المرعب حدّثت نفسي يائساً من احتمال النجاة... إيه يا سندباد، ليست كلّ مرة تسلم الجرّة، ان القيت نفسك في الماء داهمتك الوحوش الغريبة، وان بقيت في السفينة انقضت عليك طيور البحر المخيفة.لن تنجو هذه المرّة. كان الموت يحاصرني من جميع الأبواب: ألتفت إلى البحر فأرى الدم، وأرفع رأسي إلى السماء فأبصر الطيور الغريبة تقترب منّي. وفي مثل هذه الظروف تخطر الضراعة للّه قبل كلّ شيء. سألت اللّه النجاة، وأنا أقف كالصّخر في مكاني، ونذرت أنّي سوف أترك الدنيا الفانية وملذّاتها، والحياة وخداعها وانصرف -إن كتبت لي الحياة وعدت إلى بلدي- لأعمال الخير والبرّ، أبني المساجد، والمدارس، أمنح الفقراء نصف أموالي، بل كلّها. بدأت أتلو آية الكرسي...

بقيت واقفاً في مكاني انتظر منّة السماء عليّ بالنجاة... وشفتاي لا تفتران عن الدعاء، وتلاوة آية الكرسي، وكانت المخلوقات الغريبة ذوات الأصوات المزعجة تحوم حول السفينة، وفي بعض الأحيان تهبط من علوّ شاهق فتكاد تلامس السطح كأنّها تتردّد في ابتلاعي. استمرت الحالة عمّا هي عليه بعضاً من الوقت... وفجأةً، وذلك ما لم أكن أصدّقه أوّل الأمر، حامت تلك المخلوقات البشعة الغريبة حول السفينة، وراحت تبتعد عنها شيئاً فشيئاً...

كانت الدهشة تعقد لساني، وعيناي حائرتان بين الماء والسماء،

كيف حدث الأمر، ولِمَ تركتني الطيور الغريبة، ولماذا... وأين... وأسئلة كثيرة لا حصر لها...

في الوقت نفسه سمعت أصواتاًخفيفة تقترب من السفينة، فطاف بصري عبر البحر. رأيت من مسافة قريبة بعض الزوارق تسير باتجاه الباخرة المنكوبة سيراً غير معقول يعقبها أصواتٌ غامضة تصدر من مؤخّراتها.

ارتحت قليلاً، وزال خوفي، لكنّ شكّي ظلّ قائماً لأنّ سير الزوارق السريع أذهلني. إنّها تنطلق كالرياح فوق سطح الماء من دون مجاديف. حينذاك ظننت أنّ الزوارق السريعة أنقذت السفينة من الحيوانات الغريبة الطائرة، فأسفت أسفاً بالغاً لإنتحار قومي الجماعي. ليتهم انتظروا قليلاً، لو صبروا مثلي لكانوا أحياء الآن!!

خلال دقائق انجلت الحقيقة كاملة لعينيّ. ثلاث زوارق اصطفت عند السفينة من الجانبين والمقدمة. كانت تحمل بعض الأشخاص الذين ارتدوا ملابس بيضاء وقبعات زرقاء. بقي بعضهم في الزوارق وأيديهم تقبض على آلات لا أفهمها وجهوها إليّ، وصعد آخرون إلى سطح السفينة. كانوا يحملون أيضاً آلات يوجهونها إليّ. تقدم أحدهم نحوي ومرّر يده على جسدي وفي جيوبي. يبدو أنّه فتّشني بدقّة؟!

هل هم قراصنة؟ سألت نفسي. لا أظنهم كذلك، فهيئتهم

الغريبة، والأجهزة التي يحملونها تختلف عن أجهزة القراصنة. تحدّث الشخص الذي فتّشني مع أحد الرجال الواقفين على بعد خطوات منّي بلسان غريب لا أفهم منه أيّة كلمة. إنّها لغة جديدة تطرق مسامعي للمرّة الأولى، وكلّ ما تقع عليه عيناي كان غريباً عنّي من ملابس، وأحذية، وآلات، لولا أنّهم بشرٌ مثلي لهلكت من الرعب...

ولربّما تمنّيت في تلك اللحظة أن يكون ما أعيشه كابوساً وليس حقيقة، فهربت يائساً إلى الأحلام... لكنّ احساسي يقول لي: إنّي أعيش واقعاً ملموساً لا مناص إلى الهرب منه!

أنزلني هؤلاء الأشخاص من سطح السفينة إلى أحد الزوارق وانطلقوا بي إلى الساحل حيث رسونا عند أحد الموانى العجيبة...

كانت دهشتي تزداد اتساعاً وحيرتي تكبر كلما وقع بصري على مشاهد غريبة تخلو منها بلادي التي تُعد مركز العلم والعرفان للعالم بأجمعه...

أين نحن من كلّ تلك الأمور الغريبة التي أراها؟ لعلي سألت نفسي مرّاتٍ ومرّاتٍ: هل أنا أحلم؟ عيناي وحواسي الأخرى يقظة...لا أشك في ذلك... وشعوري ينبؤني أنّي اعيش واقعاً، فأرى على رصيف الميناء تشخص لناظريّ هياكل عالية ذوات أذرع تهوي إلى الأرض فتلتقط من على الرصيف صناديق، وترفعها ثانيةً

لتضعها في مكان آخر، وأبصر كالنائم آلاتٍ تتحرك، فيترجل منها أناسٌ يشبهونني، ثمّ يجتاز بي رجال الزورق ممرّاً عريضاً ويأمرني بالإشارة أحدهم أن أصعد لأدخل في بطن آلة لها فتحات أربع ذوات أغطيةٍ، وعيون من زجاجٍ في الرأس والمؤخرة...

بعد رحلة قصيرة داخل تلك الآلة العجيبة، سلّمني رجال الزورق إلى مجموعة أخرى، فصحبني أحدهم إلى غرفة صغيرة تحتوي على سرير للنوم، وممّا زادني حيرة أنّي وجدت مصباحاً ذا قبعة يتدلى من سقف الغرفة ينير ليلاً من دون زيت، وينطفي خلال النهار...

ايه صديقي المغامر علاء الدين، ذلك المصباح السحري ذكّرني بمصباحك، ولو كنت أقدر لقفزت إليه وعركت قبّعته بأناملي لعلّ المارد يخرج منه فيحملني على ظهره... لبيكَ يا سندباد... فأطلب منه أن يحملني على ظهره ويعود بي إلى بلدي...

كان هؤلاء القوم يعاملونني بلطف، ويقدمون إليّ طعاماً غريباً عني. في الأيام الأولى صدت نفسي، وانعدمت قابليتي، غير أنّي اعتدت على طعامهم. كلّ يوم يفتح حارس الباب ثلاث مرّات، يضع أمامي طبقاً من الطعام، ولا أحد من الحراس أو الخدم يحاول الكلام معي، فليس هناك من أحد يفهمني...

في اليوم التالي حضر إلى غرفتي شخص يرتدي ملابس بيضاء

وبحوزته أجهزة مختلفة. ناولني قرصاً صغيراً، وأشار إليّ أن أزدرده، وما أن فعلت ذلك حتى شعرت بخدر لذيذ يدبّ في أوصالي، وراحت أجفاني تنطبق لأتوغّل في نوم لذيذ...

وبعد مضيّ زمنٍ أعجز عن حصره بالضبط فتح باب الغرفة أحد الرجال. كان يحمل آلةً ذات ساقين كالضفدعة، وضعها على رأسي، وجعل نهاية الساقين المستديرتين تغطّيان أذني، ثمّ رفع جهازاً صغيراًقرب فمه وبدا يتحّدث...

وحين سمعت الصوت هزّتني موجة عارمة من الفرح....

لا أكاد أصدق نفسي.....

أنا الآن أسمع العربيّة بوضوح....

كدت من فرحتي أفقد توازني. كاد يُغمى عليّ....

وها هو الجهاز العجيب يتحدّث معي:

السلام عليكم أيها السندباد... ها نحن نحييك بتحيّتكم ليزول عن قلبك الخوف والوجوم...

أيها السندباد:

كان من حسن الحظّ أن يجرف إعصارٌ قويّ سفينتكم إلى قارتنا. لقد اكتشفنا نتيجة لوصولكم خطأ إلى مياهنا أنّ هناك بلاداً غير متطورة مجهولة لنا. كنّا نظنّ قبل وصولكم انّ العالم هو قارتنا

فقط، أمّا ضربة الحظّ هذه فجعلتنا نكتشف قصور نظرنا فنعرف أننا لسنا الوحيدين في هذا الكوكب.

وبهذه المناسبة نودّ أن نسجل أسفنا عمّا حصل لبحّارتكم المساكين. فعندما اكتشفت أجهزتنا سفينتكم البدائيّة، تصوّرناها في البدء آلة حديثة بعث بها عدوّ ما لمهاجمتنا أو التجسس علينا، فأرسلنا طائراتنا وزوارقنا البحرية وبعضاً من غوّاصاتنا لمعالجة الأمر، غير أنّ الخطأ القاتل الذي حدث هو أنّ العسكريين ظنّوا البحارة المساكين فرقة انتحارية قفزت إلى الماء لتهاجمنا، ففتحنا عليهم النار وقتلناهم، وبهذه المناسبة نودّ أن نعبّر لك عن اكبارنا لشجاعتك، فأنت الشخص الوحيد الذي ظلّ حياً لأنك استطعت التماسك، وإلا لكنّا أطلقنا عليك النار، ونحن نأسف أيضاً لأننا اضطررنا لحجزك مدة أسبوعين خشية من أن تكون تحمل معك أمراضاً لا نعهدها في بلادنا قبل قدومك.

أيّها السندباد: لقد جمعنا أوراقاً وكتباً وسجلاتٍ من مخزن السفينة، فأخضعناها للدراسة والتحليل، ويسعدني أن أخبرك أن أجهزتنا استطاعت فهم لغتكم وبفضلها نستطيع التحدث إليك وتستطيع الحديث معنا، وسأصحبك أيّها السندباد إلى رئيسنا ليستقبلك هناك في قصره ويسألك عن بلادك البعيدة...

استقبلني السلطان، ورحّب بي هو وحاشيته ترحيباً حاراً. كان الحاضرون يتطلعون إليّ باستغراب، انهم يشبهونني تماماً، لكنّ

الشيء الذي رأوه جديداً ملابسي غير المألوفة لهم، والعمامة التي تغطي رأسي...

قهقه السلطان وسألني:

-من أيّ بلاد أنت، وما هي اسم مدينتك؟

-أنا يا جلالة السلطان من بغداد، واسم خليفتنا هارون الرشيد؟

فقطب الملك حاجبيه وسألني بدهشة:

-عجيب؟ وهل مازال هارون الرشيد حيّاً يرزق؟

-نعم يا مولاي فقد تركته حيّاً قبل رحلتي الأخيرة.

-لقد قرأت في الأساطير والكتب عن حاكم قديم عاش قبل مئات السنين في أرض بعيدة عن أرضنا يدعى هارون الرشيد.

فأكدت قولي بحماس: إنّه يعيش الآن يا مولاي.

فردّ كبير الوزراء على قولي محتجاً:

-يا سندباد الذي يحدّثك ليس ملكنا إنّه رئيس البلد...

التبس عليّ الأمر، فقاطع السلطان كبير الوزراء:

-سوف يفهم فيما بعد، لكنّي أريد أن أعرف عن بلاده الشيء الكثير فمن الأشياء العجيبة أو التي لا تصدق أن يقرأ شخص عن أشياء حدثت منذ مئات السنين ثمّ يجدها أمامه وكأنّها واقع لا

مراء فيه.

-يامولاي على الرغم مما مررت به من محنة فأنا لم أفقد عقلي بعد والدليل على سلامة تفكيري أنّي أذكر اسمي جيداً، واسم خليفتنا هارون الرشيد، واسم مدينتي بغداد...

فضحك السلطان ضحكة عميقة وسألني:

-قل لي يا سندباد ما هي وسائل النقل عندكم؟

-نحن نستخدم يا مولاي البغال والحمير والابل والسفن الشراعية وننير المصابيح بالزيت ولم نعرف بعد الحيوانات الطائرة والحيوانات التي تجري أسرع من الحصان، فلولا ايماني باللّه يا مولاي وقوّة أعصابي لكنت فقدت عقلي منذ حادثة السفينة فما رأيته في بلدكم هو أغرب من الرخ وجبل المغناطيس والجزيرة الحوت...

هزّ السلطان رأسه، والتفت إلى الحاضرين، ثمّ تحدث قائلاً:

-إن الذي رأيناه وسمعناه هو أسطورة قديمة برزت إلى الواقع من جديد.

ثمّ التفت إليّ وخاطبني

-اسمع يا سندباد، يبدو أنّكم ما زلتم تعيشون حياة تختلف عنّا تماماً، لا أظن أن كلّ خلفائكم يُسمّون هارون الرشيد، وأنا أريد أن

أعرف منك الشيء الكثير.

فانحنيت وهتفت:

-أنا طوع أمرك يا مولاي...

-قد تبدو الحياة هنا غريبة عليك أوّل الأمر لكنك ستعتاد عليها بالتأكيد لأنني أودّ أن استضيفك في بلادنا سنة كاملة تحدّثني خلالها عن بلادكم بالتفصيل فان رغبت بقيت، وان رغبت رحلت بعد أن ينتهي العام....

قبلت ضيافة الرجل... وكنت أسامره كلّ يوم تقريباً....

وكان ينصت إليّ باهتمام...

خلال تلك الفترة عرفت الشيء الكثير عن ذلك البلد. ان الرجل الذي استقبلني يسمى "الرئيس" هو رئيس القوم وفق نظامهم السياسي الخاص، الناس هناك يختارون رئيساً يحكمهم كلّ ستّ سنوات، واذ تنتهي فترة حكمه، يقترعون من جديد فإمّا أن يبقوه في منصبه إن كانوا راضين عنه، أو يستبدلوه بغيره، وقد أخبرني الرئيس نفسه ذات يوم أن ظهور سفينتنا المفاجيء عزّز مركزه السياسي ودفع الناس إلى التفكير بتجديد ولايته لأنّ صفحات التاريخ المعاصر ربطت بين زمن ولايته واكتشاف عالمنا بغضّ النظر عن كون الامر محض مصادفة أو نتيجة عمل متعمّد. كانوا يطلقون على أنفسهم العالم القديم، امّا عالمنا نحن -عالم

الملوك، وهارون الرشيد، فسمّهوه العالم الجديد....

كان هؤلاء القوم يعيشون حياة خاصة... لقد اخترعوا آلات عجيبة نجهلها نحن... وأثار سخريتهم ودهشتهم معاً حديثي عن الحمير والبغال، لاشكّ أنّي عشتُ لحظات حرجة وانا أتحدث عن السيوف وأسمائها المائة، والرمح وصفاته. الرئيس نفسه كان يطرب لتلاوتي على مسمعه شعراً يصف السيف، وآخر يتحدث عن الرمح. كنتُ أسهبُ في حديثي عن الجفنات الغرّ، والمهنّد والصارم، ثمّ أدخل في تفاصيل دقيقة عن الحمير والبغال ومدى صبر البعير على العطش، وحولي وفوق رأسي طائرات تطير وسيارات تجري، وعلى بعد منّي جنودٌ يستخدمون المدافع والبنادق الآليّة، وحين أرى أسارير الرئيس تتهلّل غبطة أندفع لأحدّثه عن أرداف النساء، والعيون الحور، والنجل، وأقصّ عليه حكايات أبي نواس، ومحاولات الشحاذ الفقير للزواج من حبيبته الأميرة الغنيّة. أقصّ كلّ هذه الحكايات وعيناي تطوفان كلّ يوم بالأفخاذ العارية، وقوافل النساء اللاتي يجلن بالأسواق سافرات، بعضهنّ يلبسن ملابس فاضحة تكشف عن نهودهنّ أو بطونهنّ، وأخريات يرتدين ملابس رجال....

وعلى الرغم من ايماني وقوّة تديّني فقد راودني هاجس تفجّرت من جرائه غرائزي، فاندفعت الرغبة داخلي كالمرزاب...

هذا العالم الجديد يثير رغبة الشاب المراهق، والشيخ الطاعن في

السنّ مثلي...

وفي يوم ما حدّثت كبير القوم عن رغبتي، قلت له يا مولاي، فقاطعني، بقوله: يا سندباد أنا أحبّك وأحترمك، لكنّك ما زلت تحدّثني بلغة الملوك، وأنا رئيس يبدّلني الناس حين يشاؤون ولا أستطيع أن أبدّلهم متى شئت.

انّك رجل معاصر بكلّ ما تحمله كلمة (حداثة) من معنى. لقد هدتنا أساطيرك الى كلّ تلك الاختراعات الرائعة. حلمتَ ياسندباد برخ كبير يطير فكانت الطائرة. وحلمت بحوت كالجزيرة فكانت الغواصة، بفضلك ياسندباد استطعنا ان نوّحد بين الاسطورة والعلم. اما مايؤسفنا حقّاً فإنّك مازلت تتحّدث بلغة القدامى، تظنني ملكاً وتهابني، ولم تفتح لي قلبك بعد....

صمت لحظة بعد حديثه الطويل، واردف:

- آنا آسف ياسندباد ان قاطعتك قبل ان تكمل حديثك...

كنت اودّ ان احدّثه عن رغبتي في النساء، سوف أقيم هنا عاماً بين سكان العالم الجديد، وأنا رجل شرقيّ تجري داخل عروقي دماء الشرق، فأرى أن من المحال أن أظلّ سنة من دون امرأة... الزواج... ليكن الزواج. لقداندفعت بجرأتي المعتادة كأيّ شرقي يقتحم موضوع المرأة من دون تردّد:

-أنا شاكر لك سيادة الرئيس استضافتك لي وأنت تدرك أنّي

وحيد، وربما اشعر بغربة قاتلة، فهل تمانع في أن أتزوّج.

ولّما سمع كلامي اطلق قهقهة ساخرة، وقال:

- اذ يطول بك المقام هنا تكتشف انّ الزواج أصبح تقليداً قديماً. تستطيع ان ترافق ايّة فتاةتقبل بك الى الفراش. ياسندباد، الفرصةأمامك سانحة أكثر من أهل البلد لانّك قديم وغريب، ونساؤنايفضلّن كلّ ماهو غريب وغير معتاد.

كنت اتعرّض لمثل تلك المغريات في رحلاتي السابقة وكان علاج الاغراء الزواج. تزوّجت هندية واخرى من جزر الواق واق وثالثة... ورابعة.... ولعلّ أبنائي الآن ينتشرون على الارض فلا اعرفهم. ربّماالتقي بهم فلا اميّزهم، فأنا كالاسطورة لايحدّني عن غايتي عائق، ولايحول دون هدفي زمان. رآني الناس في زمن هارون الرشيد، ورآني أحفادهم داخل بطون الكتب، وسمعتْ عنّي أجيال مختلفة. السندباد يعني الرحلة والمغامرة، وبقدر ماأحبّ المغامرة بمقدار عشقي الهول، واقتحامي الرعب، بقدر ذلك كلّه، كنت اكره الحرام.. الناس في مدينتي يعرفونني متديّناً صادق العبارة، أصلّي وأصوم، المغامرة ذاتها لم تمنعني من أداء الفرائض، لكنّ هؤلاء النساء هنا، يرغبن عن الزواج، ويفضّلن العشرة من دون رابط....

فكيف أقاوم اغراءهنّ؟

وكيف اعرض عن المحارم؟

لم تطل هواجسي، ولم يطل قهري لنفسي. انا الآن بعيد عن قومي.لا أحد يعرفني إلاّهؤلاء القوم الذين وصلت اليهم شذرات من أساطيري، وما املاه عليهم خيالهم عن عوالم بعيده ظنوّها خرافة، فإذا هي أمامهم واقعاً لا يتسرب إليه الشك...

مادمت في بلادي واقعاً، وهنا اسطورة، ومادمت وحّدت الاسطورة والواقع، كما يصّرون عليه، فيحقّ لي ان استغلّ الفرصة... ان اذنبت فأناأسطورة، وان لم أذنب فأنا واقع معترفٌ به.. امّا اذا عدتُ الى بلدي فلا أحد يعرف قطعاً مافعلت هنا.. سوف أتحدّث لهم عن كلّ شيء إلاّ تصرفاً يرونه عيباً. ليس نفاقاً منّي ايّها السادة، لكنّي لا أرغب ان اصدم أهل بلدي لانّهم يعدونني مثالاً للخلق القويم، ولااعتقدني مذنباً اذ أفعل شيئاًهنا يُعدّ من المحارم في بلادنا...لا اظنّ ذلك...

هكذا عشتُ في تلك البلاد....

عرفت طعماًجديداًللحياة...

ورأيت أشياء جديدة أكثر غرابة مما رأيته في كلّ رحلاتي السابقة.... فالحياة الجديدة، والعالم الجديد حقّقا لي امنيتي ورغباتي... حلمت برخ يطير يحملني فوجدته رخّاً من معدن يحملني ويحلّق بي في الهواء... وتمنيّت مارداً ينقلني من مكان

الى آخر فجاءني مارِدٌ من حديد ركض بي على الأرض أو فوق الماء...

ولست أبالغ إذا قلت: انّ المستحيل الذي حلمت به وتمنّيته تحقق لي في هذه البلاد...

لكنّ الحنين إلى مسقط رأسي عاودني من جديد، فلم استطع مقاومته، ولم أقدر علىأن اكبح جموحه...

بعد تمام العام زرت سيادة الرئيس. شكرته على حسن ضيافته لي واستأذنته في السفر، فاحتفى بي، واقام على شرفي حفلة وداع ضخمة، وامرني، وهو يودّعني، ان أبلغ سلامه لخليفتنا هارون الرشيد وان اخبره بانّ سكان العالم القديم سوف يأتون إليه، واضاف الرئيس انه أمر جنوده ان ينقلوني بسفنهم الحديثةالى أقرب جزيرة يمكن ان تمرّ بها سفن العالم الجديد اي عالمنا - لكى تنقلنى احدى السفن العابرة من هناك الى بلدي، وحين سألته إن كان بإمكان سفنه الحديثة أن تمخر عباب البحر الواسع فتصل إلى بلدي حيث يستطيعون أن يتّصلوا مباشرة بعالمنا الجديد، أجابني إن الوقت لم يحن بعد... وأنهم لا بد أن يأتوا في يوم ما...

وكان يشدّ على يدي مودّعاً ويؤكدّ أنّه سيحقق وعده في أقرب وقت مناسب...

أخيراًعدت الى مدينتي الحبيبة بغداد...

وعندما رجعت، علمت أنّ زوجتي توفيت قبل ستة أشهر نتيجة لمرضها العضال، وحين سألت عن جلالة السلطان -لانني اعتدت ان ازوره بعد عودتي من كلّ رحلة لأقصّ عليه مغامرتي الجديدة - علمتُ انّه خرج بموكبه الى الصّيد شأنه كلّ عامٍ في مثل هذه الايّام....

ثمّ تزاحم حولي الناس يسألونني عن رحلتي الاخيرة.... فبدأت أسرد عليهم التفاصيل... رحت أحكي لهم عن حديد يطير ومعدن يتكلّم وزجاج يظهر على صفحته اناسٌ يتحّركون....

تحدّثت عن نساءٍ حاسرات الصدور، مكشوفات السيقان، وعن نساء يرتدين ثياب الرجال، ويقصصن شعورهن مثلهم تماماً....

كانت أحاديثي تثير الدهشة في نفوس المستمعين. ظننت طول الطريق بأنّهم سوف يصّدقوني لأنّي عثرت على بشر مثلهم،فاستعاذوا بالشيطان منّي، وظنّوا بي مسّاً من الجنون....

كيف يخلق الانسان حديداً يطير ويتكلّم. تساءل رجل وعقّب آخر: انّ الذي خلق طيراً مثل العصفور، وخلق آخر كالعقاب يستطيع أن يخلق، جلّت قدرته، طيراً ضخماً يبيض بيضة بحجم الغرفة، امّا هذا الانسان الحقير التافه فهو أعجز من ان يخلق ذبابة، ماهذا الكفر ياسندباد؟ يبدو انّك تعّرضت لهول أفقدك صوابك وقدرتك على التفكير، وهتف شيخ ضرير: انّ العمى هو عمى

القلوب وليس عمى العيون، كما يقول المثل، هذا السندباد المعتوه بدأ يبثّ الفساد في البلاد، وينشرُ أخبار الجاهلية الاولى: نساءٌ مكشوفات السيقان، حاسرات الرؤوس يتجولن في الاسواق، وصرخ سفيهٌ من سفهاء بغداد: يبدو انّ سفينة السندباد تحطمت في البحر فحملته الامواج الى بلاد البغايا والجنس، وراح آخر يعقّب: كان بامكانك ياسندباد ان تحضر معك على ظهر السفينة القادمه مائة من هؤلاء النساء فتفتح ملهى لتصبح من اكبر اغنياء البلد في ظرف عام...

شيئاً فشيئاً قلّ المستمعون اليّ... كنت في السابق اذا تحدثت تجمّع حولي العشرات بل المئات لأحكي لهم عن الرخ، وجبل المغناطيس وارضٍ تخدع البحارة بمظهرها فإذا هي حوت نائم ايقظته نار اشعلها أحد البحارة، فالناس يظنون بي مسّاً من الجنون ونفحةُ شيطانيّة... حديد يطير، ومعدن يتكلّم. اني، كما يظنّ معظم الناس، واجهت في سفرتي الاخيرة شيئاً عجباً جعلني افقد عقلي، فتكلمت عن لسان الشياطين... وعندما رجع الخليفة من الصيد بعث في طلبي... فخالط قلبي سرور مفرط. لقد انكر عليّ الناس قولي، ولعلّهم يكفرون عن سوء ظنّهم بي حين يعرفون انّ الخليفة نفسه صدقني....

فها هو ينصت الى السندباد، ويعدّ العدّة لاستقبال ضيوفه القادمين في يوم ما من العالم الجديد... حينذاك سوف يرى

المتشككون الحديد الطائر ويسمعونه يتكلّم بأمّ أعينهم... فيعرفونني صادقاً في وصف رحلتي الاخيرة، وكاذباً في حديثي عن مغامراتي السابقة...

انّ الامور تبدو مقلوبة امام ناظريّ: اذا كذبت صدقني الناس، وان صدقت القول كذّبوني.... ومهما يكن الامر فعليّ ان أبلّغ مولانا الخليفة رسالة بعثها اليه حاكم العالم الجديد....

هذه المرّة اختلفت الحال عمّا هي عليه سابقاً

كان الخليفة يقطع البهو ذهاباً وإياباً. خيّل اليّ أنّه يعاني من لحظات عصيبة. يداه ترتعشان، وجهه منقبض القسمات، وفجأة انغرزت نظراته كالمسامير بوجهي:

. معذرة يامولاي. انتم تعرفون اخلاصي لجلالتكم وخدمتي لمملكتكم حتّى انّي لم انس الاشادة بكم في ايّ لقاء مع أيّ ملك خلال رحلاتي السابقة.

فزعق بوجهي:

. ماذا عن البدعة الجديدة، وتبديل السلطان كلّ ستّ سنوات؟ ماذا عن القرعة؟ ماذا عن نشر الفوضى والفساد، مخلوقات يصنعها البشر تطير ونساء عاريات، ألا يُعدّ ذلك تجديفاً بالدين وتحديا للقيم والاخلاق.

فجثوت امامه على ركبتي وقلت بتوسّل:

. معذرة يامولاي كنتم تطلبون منّي بعد كلّ رحلة ان أصف مالاقيت من عجائب وغرائب في البلدان البعيدة، وقد عاهدت نفسي على انْ أصف لكم كلّ شيء بدقّة متناهية، فلم ازد او انقص عمّا رأيته وسمعته ايّ شيء.

يبدو انّ حدّته بدأت تخف فقال ولما يزل الانفعال يهدّج صوته:

. يؤسفني ان يصيب خرف الشيخوخة شخصاً مثلك اعتزّ بصداقته ياسندباد...

في هذه اللحظة تدخل صديقي الوزير:

. يامولاي المعهود عن جلالتكم انكم تحفظون للصداقة حقّها: ولاينكر احد تجاوزكم عن السيئات مهما كانت، وانا أقرّ انّ السندباد نشر أخباراً غريبة في البلد اضطرتكم الى قطع نزهتكم لكنّي لااظنّ انّ السندباد تعمّد ان يسيء اليكم وكلّ ماارجوه منكم يامولاي ان تتذكروا عامل السنّ:

هزّ الخليفة رأسه وخطا الى عرشه، ثمّ واصل كلامه:

. حقّاً ماتقول. الرجل بدأ يخرف، فهو على ماأظنّ شارف السبعين، ولااعتقد انّه تعمّد ان يسيء الينا بتصرّفه الأخير...

كان الحاضرون ثلاثة فقط: الخليفة والوزير ومفتي البلد، ذلك الشيخ الوقور الذي أنيطت به مهمّة درج الامور ضمن باب الحلال والحرام، وعندما أنهى الخليفة حديثه حلّ دوره فوبّخني:

. ياسندباد الذي اعرفه عنك انّك كنت مؤمناً صادق الايمان حدثتنا بصدق عمّا رأيته في كلّ رحلاتك عدا الرحلة الأخيرة، لكنْ يبدو انّ اعصابك لم تحتمل تعب السفر من جراء حدث مروّع مررت به. استغفر اللّه ياسندباد لانّك نطقت بهتاناً وكفرا.

وواصل حديثه بحماس بعد ان رشف جرعة من الماء:

قل لي ياسندباد اذا كان الناس يختارون حكامهم، ويخلقون آلات تطير وأخرى تسير فما هو عمل اللّه. ياسندباد اتق اللّه فهو الذي قدّر للناس وظائفهم واختار لهم حكامهم وخلق لهم الانعام....

تحدّث الثلاثه، وكنت صامتاً، لا أحد يفهمني، ولا أحد يريد ان يصدقني، وقد حاول الوزير ان يخفف من غضب الخليفة، اذ كنت ذا فضل عليه، فكلما رجعت من سفرة غمرته بالهدايا والتحف، ماعدا السفرة الاخيرة، لأنّ رئيس العالم الجديد فضّل الاجلب الى بلدي ايّ شيء من هناك لسبب ما لم يوضّحه لي، مع العلم انّه وعدني بأنّ كلّ شيء يمكن ان يكون في المستقبل.

اتفق الاثنان . الحكومة والشعب. على أنّي مذنب لم اتعمّد الاساءة.

ومثلما جاء اتفاقهم السابق، أوجدوا سبباً ينقذني من العقوبة. قالواانّ الشيخوخة استهلكت قواي، ودمّرت اعصابي وزادني ارهاقاً

هولٌ ما تعرضت له سفينتي المبحرة، فتخيلت بشرّاً يخلقون كائنات تتحرّك، ورأيت نساء عاريات، فلا الملك، ولا الناس يرغبون في تدميري لأنّي خلقت من خلال قصصي السابقة ماضياً يمثّل وحدتهم... لعلي اكون مبالغاً في الحديث عن نفسي، لكنّ لي الحقَ المطلق في تأويل الاشياء مثلما ارغب مادمت اقول الصدق...

امّا القرارات التي اتخذها الخليفة بحقي وعرفها الناس منذ اللحظة الاولى لاجتماعي به فهي:

١ . انّي مجنون نتيجة لحدث مهول مررت به.

٢ . خرف الشيخوخة.

٣ . لم اكن لأتعمد الاساءة فيما نطقت به

بغضّ النظر عمّا حدث...

وبغضّ النظر عن الحوادث السابقة، فقد كنت أعيش غربة قاتلة.....

بعد حياتي هناك في الارض المجهولة صعبت عليّ الحياة هنا في بغداد...

هناك تعودّت على التنقل بالسيارة والطائرة، وعرفت اموراً تثير العجب، وها أنا أعود الى البغال والحمير. لم احمل من هذه الأشياء ايّ شيء فقد وعد أهلها بنقلها يوماً ما...

يوما ما... فمتى يأتي هذا اليوم؟

امّا ما نقلته منهم فهو مرض خطير لايعرفه اهل مدينتي يطلق عليه أناس البلاد الجديدة مرض ((الكآبة)). أدخلتُ الى قاموسنا القديم مصطلحاً جديداً لم يكن الناس في بلادنا ليعرفوه قبل عودتي من رحلتي الاخيرة....

لقد رأيت الايام التي عشتها في اغترابي تتحرّك امام ناظريّ. الرحلات السابقة كانت غير خطرة، لانني عشت في مجتمعات تشبه مجتمعنا وتتطابق معه في اكثر من حقل....

رحتُ أحدّث نفسي عن تلك الايام، واستهلكني الحديث تماماً. لم يدرك الناس بالطبع مرض الكآبة الذي نقلته معي . رأوني أحدث نفسي كثيراً. أسهب في الحديث، وأتخيلّ اشياء ظنوها وهماً فأشفقوا عليّ....

ونصح الاخيار من اصدقائي اهلي بنقلي الى مشفى المجانين.... تعرّض ابنائي والاقربين اليّ إلى ضغط من الناس، فخشوا على سمعتهم ومراكزهم، اضطروا الى الحجز على البقيّة الباقية من املاكي ثمّ نقلوني الى احدى المصحات..

هكذا انتهى بي المطاف أخيراً أيّها السادة...

هناك بين المجانين استقر بي المقام، ومازلت اعدّها رحلة. اقول لنفسي ايه ايّها السندباد قضيت عمرك رحالاً لاتستقرّ على حال،

من الرخ، الى جبل المغناطيس، الجزيرة الحوت، ثمّ البلاد الجديدة، مايضرّك ان تقضي رحلة ممتعة مع المجانين تعود بعدها إلى منفاك الجديد في تلك الحياة الواسعة العريضة التي لاتعرف مستقرّاً الا حين تنتهي رحلة ما لتبدأ أخرى....

مرّ على إقامتي في المشفى أكثر من ستة أشهر، لم يزرني خلالها أحد. اعتزلني الناس تماماً. أبنائي مشغولون بأعمالهم، وأصدقائي منصرفون لشؤونهم الخاصّة. العزلة عن العالم جعلتني اندمج بالعالم الجديد. عشت مع قوم يملكون القدرة الفائقة على تحّدي الطبيعة والبشر. انّهم أقوى من العقلاء بكثير...

أنا شخصياً لا أستطيع أن أحقق أهدافي إلا عبر وسائل ضرورية. ما هو السندباد؟ إنّه مغامر يكتشف الغريب، يحتاج إلى سفينة وبحر، وزمن مضاف إلى مكان مجهول، بتلك الوسائل يصل السندباد إلى الشيء الجديد، الشيء الغريب، فيعود به إلى أهل بلده الذين لايقبلون منه عادة إلا الأشياء الجديدة، عدا السفرة الأخيرة طبعاً...

أمّا هؤلاء فهم في غنىً عن كلّ الوسائل إذا احتاج أحدٌ منهم إلى حصان كسر أقرب غصنٍ له وارتقاه وحين يريد شخص ما الصيد يدسّ في حفرة أيّة قشةٍ يجعل منها صنارة لصيد السمك. هذا المكان له القدرة على فعل أيّ شيء يصعب تحقيقه من قبل الآخرين...

الانسان هنا لايهمّه الجوع والعطش. يستطيع الطيران وهو على الأرض ويصيد الأسماك في موج من الرمال. لا أظنني مغالياً في كلامي إذا قلت إنه أغرب مكان عثرت عليه في حياتي، فهو أحسن بكثير من جبل المغناطيس العجيب، وأجمل من العالم الجديد، أو عالمنا الجديد - وفق آراء القوم الذين وعدوني بالمجيئ-. هنا في هذا المكان استطعت أن أحلّ نقطة الخلاف بيننا وبينهم، فهم يقولون عنّا العالم الجديد، وغداً إذ يأتون نقول عنهم: الناس الجدد، فمن هو القديم ومن هو الجديد؟

استفتيتُ أصحابي الجدد، ثمّ خرجت برأي مطابق لما حلمت به. دعهم يأتون عند ذاك نتّفق على أنّ العالمين -عالمنا وعالمهم- قديم جديد بالوقت نفسه، مثلما تكون الأسطورة واقعاً والواقع أسطورة في هذه الأيام العجيبة...

لكنّ الذي قطع عليّ خلوتي تلك اللحظة ليس المجانين ولا صخبهم... إنّ أصواتاً غريبة انتشلت ذاكرتي....

طوال الستة أشهر الماضية عجز أي شيء عن انتشال خيالي حيث عشت بكلّ جوارحي مع أولئك المجانين، باستثناء، اليوم أو هذه اللحظة بالذات حين رفعت رأسي إلى السماء، فرأيت الطيور الغريبة تجوب الفضاء، فتملأ الأسماع بأصواتها الحادّة وضجيجها القوي... آه إنّهم قادمون بالتأكيد، وقد وفى الرئيس بوعده!!

في تلك الدقائق المثيرة تداعت الأحداث أمامي دفعة واحدة فتساوى العقلاء والمجانين، فخطوت من مكاني إلى أقرب مجنون وسألته:

-هل ترى الحديد يطير؟

فرد بصرخة مثيرة:

-لايهمّني فأنا مسؤول البحر.

وركب آخر قصبة جعلها حصاناً وكان يعلّق:

--لم لاتصدّقني مثلما صدّقتك.

وعندما قابلني الوزير وجهاً لوجه ظننته جاء إلى المصحّة مثلنا. تجاهلته، ثمّ اندفعت نحوه وزعقت:

-من أنت؟ الآن عرفتك انّك جحا.

فقال والدهشة تعقد لسانه:

ماذا حلّ بك ياسندباد هل نسيت أصحابك القدامى؟

فاعترضت: كان لي صاحب واحد يدعى جحا.

فطلب منّي يائساً أن أتوقف قليلاً:

-يا سندباد..أرجوك اسمعني؟

-حسناًإن لم تكن جحا فمن تكون؟

تجمّع حولنا المجانين يهتفون ويصرخون، ويلوّحون بأيديهم إلى الطائرات التي راحت تحلّق في السماء، وتناهى إليّ صوت يصرخ: إنّها لعبة أرسلتها البارحة في المنام، وحدّق بوجهي مستغرباً ثمّ سالني:

...لِمَ قطعت خيطها؟

فجذبني الوزير من يدي واتجه بي إلى إحدى الزوايا الهادئة:

-أنا صديقك يا سندباد!

-أنت اتهمتني بالجنون.

-معاذ اللّه أن أقول عنك ذلك فما أنا إلا رجل أنفّذ الأوامر.

هل أفتعل الجنون فأرفض الحديث معه. لاشيء أسهل من الإنتقام والثأر. كذبت فصدقني الخليفة والرعية، وصدقت فكذبوني، وماعليّ إلا التمادي في موقفي... ربّما خطرت بذهني مثل تلك الفكرة، لكنّها لاتخدمني على الإطلاق، لماذا أهرب طول حياتي إلى المصحّة ألأني أريد ان اذلّ الرعية التي تراني عاقلاً بادعائي الجنون؟ الآن صدّقني الناس في بلادي، ولي في العالم الجديد أصدقاء. لقد عشت هناك فرأيت الجديد العجيب، ولاشيء نغّص عليّ حياتي سوى الحنين إلى العالم القديم، عالمي الذي ولدت فيه، وبعدأن رجعت راودتني كآبة... صعب عليّ أن أعيش هنا طويلاً...

إنّها فرصة جديدة، ومغامرة لم تكتمل بعد.

هنا لي وطن...

وهناك لي مقام...

لقد جاء إليّ الوزير يخبرني بأنّ الخليفة نفسه ألغى أمره السابق ووضعني وفق المرسوم الجديد على رأس قائمة العلماء والمفكرين...

- ماالذي تريده منّي الآن يا معالي الوزير؟

- إنّك عشت بينهم سنة كاملة، فعرفت أثناء إقامتك لغتهم وعاداتهم، فهلا ذهبت لتتحدّث إليهم بصفتك ممثل الدولة. ستكون حلقة الوصل بيننا وبينهم.

لم يكفني رأي الخليفة وحده، فقد رأيته شاحب الوجه، مستسلماً لقدره، وكان الناس في هياج واضطراب أيضاً... الآن أصبح السندباد صادقاً ولولا أنّه عاش مع الغرباء سنة كاملة وعرفهم قبل أن يعرفوه لكان مصيره الآن كمصير زرقاء اليمامة، ولكنتم الآن عبيداً مثلما أصبحت قبيلة الزرقاء عبيداً للأعداء...

مع ذلك، فإنّي لم أنتظر من الخليفة أن يتمّ كلامه، وما كان يهمّني أن يستمرّ الناس في هياجهم، فقد أدركت الوقت قبل أن يدركني.

كنت أغادر قصر الخلافة وبذهني ألف اقتراح واقتراح لأعرضه

على هؤلاء الغرباء الذين وعدوني بالقدوم إلى مملكتنا مع آلاتهم ذات يوم..

وهاهم يأتون من البحر، والأرض والسماء...

وبعد...

فإنّ رحلتي أوشكت على البداية...

سأذهب لأقابلهم، فإن لم تعجبني الإقامة هنا وهناك، قطعت رحلتي ورجعت إلى المصحة ثانية...

فلم لاأجرب حظي من جديد...

١٩٩٢/١/٢٢

المنسيّ

رواية قصيرة

بالليلة الثانية بعد الألف تبدأ حكايتي . . .

اي أنّي سوف انطلق حيث ينتهي الآخرون، فليس من مهمّتي أن أكتب سرداً مفصلاً لسيرتي قبل ذلك، كما إنّي غير معنيّ بنمط الحديث عن مدينتي قبل تلك الواقعة، لكنّي أعترف بأنّ الحقيقة وحدها هي التي دفعتني لأن أبدأ من حيث ينتهي الآخرون.

ليس الذنب ذنبي، أيّها السادة، بل هو ذنب شهرزاد، والرواة الذين نسوا جانباً واسعاً من الحياة المعاصرة لهم. . هذا الجانب المنسيّ هو الذي صرخ بي ذات يوم ليجذبني إليه، كما تجذب حوريات البحر الصيادين إليهم فيوغلون داخل الأعماق من دون أن يفكروا بالساحل الآمن . . .

كان الوقت ظلاماً، والشمس لما تشرق بعد، وحين انقضى الليل، وبدأ القمر يُطلّ من ذهوله انقشع الزمن المهمل من قصص الماضين، وراح يتحرّك فيّ، ثمّ يطالبني بصوت عال أن أعلن عنه . . .

وكنت كأنّي لمّا أدرك بعد ماذا عليّ أن أفعل، وبأيّة صيغة

أتصرّف. الهدف لم يكن محدّداً أمامي، فقد أكملت للتوّ كتاب «ألف ليلة وليلة» الشهير، وحين أتممته شعرت بأنّ هناك حكاية ناقصة غفلت عنها شهرزاد. حدثت نفسي بحديث طويل، وافترضت احتمالاتٍ متضاربة، واقتنعتُ أخيراً بأنّ هناك حكاية سقطت من المخطوط، فغفل عنها الناسخون.

الحكاية تتعلّق بي أنا بالذات..

قلت: إنّي سهرتُ مع الكتاب حتّى الصباح. لقد ساورني أرق شديد جعلني أسهر وأسهر، لأتابع السطور، وعندما سكتت شهرزاد عن الكلام المباح تهادى إليّ من الجامع القريب صوت المؤذّن مع صياح الديكة.

أحسست أنّ العالم كلّه كان يتابع بشغفٍ مثلي حكايات «ألف ليلة وليلة».

وفي الصباح لم أستطع النوم إطلاقاً على الرغم من التعب والأرق ومرافقة السندباد عبر أسفاره. الحكايةُ سارعت قبل الزمن لتحتلّ مكاناً ما في ذاكرتي، ثمّ تتأرجح بين شفتي. عرفت العنوان، وفهمت بعض مجريات الأحداث، وعجزت عن وضع نهاية لها تماماً.

الحكاية بدأت مع صلاة الفجر، ودفعتني إلى الخروج من البيت. كنت أمشي على غير هدى، كأنّي أسير مع الفجر إلى هدف بعيد جداً لاتدركه قدماي، أرى المناظر المحيطة بي جديدة والمشاهد

المألوفة تكاد لاتعرفني.

هـل جننت؟! أسأل نفسي. طبعـاً لا، لكني ارتدي مـلابسي، وأخرج إلى الشارع. أردّ تحيّة الأصدقاء والمعارف بأدب. أنا إنسـان طبيعيّ أبعد ما أكون عن الجنون، وخلال سيري رأيته.. وسأحاول أن أصفه بدقّةٍ متناهية.

حين انعطفت من الشـارع العام إلى البستـان عبر الممّـر الضيق فالقنطرة، واجتزت أشجار النخيـل والسرو، ثمّ قفزت من السـاقية التي تتيه بأشجار التفاح، وتتخايل بأشجار الـزيتون، قبـل أن تلفح أنفي رائحة القدّاح، رأيته هو بالذات، كـان ثمّة هنـاك سقيفة عـلى جرف الساقية، ورجل في السبعين من عمره أبيض اللحية طويلها، بشـوش القسمات يـرتدي بـدلة متضـاربة الألـوان مشتتة الـترتيب: الأصفر، الأحمر، الأخضر، البنفسجي، الأسود. قميصه وسروالـه يثيران السخرية، فوق كلّ هذا فإنّه يرتدي طاقية بيضاء تشبه لحيته.

توقفت أمامـه تمعنت فيه، تجـاهلني ثمّ تمعّن فيّ. أطال النـظر، وابتسم بوجهي ابتسامة مبهمة. قال:

- إنّي أعرفك.

فاعترضت على قوله بأدب: لعلّك تعرف شخصاً يشبهني.

- بل لقد رأيتك كثيراً.

- لكنّي أراك للمرّة الأولى!!

فأحتجّ بلهجـة تخالف مـلابسه الغـريبة: إنّـك رحلت إليّ عدّة مرّات «وكرر قوله السابق» عدّة مرّات وكان يهزّ رأسه كالحالم.

- ولِمَ اخترت هذا اليوم لتجلس هنا؟

- إنّي أجلس هنا كلّ يوم، وقد رأيتي أنت وحدك لأنّك اليوم بالذات تعمدّت العبور إليّ.

لاشيء أمامي غير الصمت المنبسط المفتوح. الدهشة، لايؤويها غير الصمت وهو يستمر في ثرثرته: أحياناً أغفو فأستيقظ على قدمين ثقيلتين تدوسان صدري من تراه يكون؟ لاشك أنّه أحد المارّة. إنّهم يعبرون فوقي ولا أحد يراني، مبصرون بالعيون لاغير...

بقيت أحدّق في الشيخ. صدمتني عباراته الرزنة. لا أعتقد أنّه يكذب. قد يكون الوهم هو الذي دفعني للتخيّل. كنت قد قرأت (ألف ليلة وليلة) ولم أقتنع بالعدد. هناك ليلة ضائعة أنا بصدد البحث عنها، ثمّ صلّيت وغادرت البيت. تركت أمّي تعدّ الفطور، وأبي يستعدّ لبعض أعماله. أتكون تلك أوهاماً أم حقائق، ثمّ سرت طوال الطريق من دون هدف، عبرت الشارع العام إلى الشارع الفرعيّ، واجتزت الفسحة الخاوية إلى الباحة الترابية، ثمّ اجتزت البستان وها أنا أراه أمامي شيخاً مختلف الألوان لايستقرّ على صفة واحدة إلا لحيته البيضاء وطاقيته. يدّعي أنّه جالس في هذا المكان منذ قديم الزمان، منذ الأزل، وهم لايشعرون به لأنّهم لم يتعمدّوا حضوره أو السفر إليه، أمّا أنا فقد رأيته لأنّي تعمّدت الإبحار في الماضي، عشت على الحلم القديم. لا يعنيني العالم اطلاقاً. لذت بالفرار من العالم المعاصر، وتجاهلته إلى زمن ماض. لا يهمّني أن تملك امريكا صواريخ عابرة للقارات وأقماراً صناعيّة. لايعنيني أبداً

أن ينهار الاتحاد السوفياتي أو تتوثب بريطانيا للقفز عبر البحار، الذي يعنيني أن أبحر في الخضمّ القديم. أعيش مع هارون الرشيد، أتلذذ برؤوس العرائس التي يقطعها شهريار كلّ ليلة. أرافق نبوخذ نصر، ويسعدني كثيراً أن أسمع عن الاسكندر المقدوني، والمسيح. ومع كرهي لليهود أحببت أن اتعلّم السحر على يد موسى، فأعرف الأخبار عن كثب، وكيف تآمر معهم معاوية ليغلب عليّ بن أبي طالب. أمّا هذا الشيخ فإنّه يعترضني الآن. كلّ الناس مرّوا به، داسوه بأقدامهم لم يروه، ورأيته، لذلك أبصرني فاستبعد أن أكون من مبصري العيون عمي القلوب.

أقول لأزيل الشكّ، في هذه اللحظة بالذات، ماسمك ياسيدي؟! يقهقه، ويجيب: المنسي.

أنت مجنون، وأنا مجنون.. عبروا عليك ولم يروك.. أما أنا فرأيتك ولم أعبر عليك من دون أن أدري.. هيا معي؟!

يقطب حاجبيه ويسألني معترضاً: إلى أين؟

أردّ بفرح اقرب إلى الدهشة: إلى المنزل.

يعاود الاعتراض: دعني هنا!!

أفنّد اعتراضه: مادمت رأيتك ولم يرك الآخرون فيحق لي أن أدعوك. ينهض على مضض ويتمتم: إنّك تتصرّف بوحي من عاطفتك؟!

- ربّما سبقني إلى دعوتك شخص آخر.

يردّ مستغرباً: قلت لن يراني أحد سواك. «ويردف بصوت

أقرب إلى الهمس» ليس من صالحك أن ارافقك!!

رغم كلّ ماسبق فنحن نسير معاً. ألححت عليه. أقسمت بأن يأتي معي زادني إصراراً أنّي أوّل فرد يراه - كما يدّعي هو - وهو اعتراف يمنحني امتيازاً لايتمتع به غيري، فاضطرّ الشيخ إلى أن يرضخ للأمر الواقع..

كنّا نجتاز الساحة المعبّدة، وبستان النخيل، ثمّ الساقية، والساحة الترابيّة، أواجه الناس وحدي في حين كان يسير جنبي. أردّ التحيّات وحدي. أتوقّف لأرحبّ بصديق، فيتوقّف معي، لكنّه لايتكلّم. لاينطق. يتجاهل، فاعترض على تصرّفه. أصحابي ربّما شعروا بالضيق لأنّ ضيفي الشيخ المجنون يرفض الحديث معهم. يراني منزعجاً فيقول: لاتكلّف نفسك مشقّة السؤال، فهم لايرونني لأنّي ارتدي طاقية الإخفاء!

مع جملته ينهار الواقع فوق رأسي... الجنون يصبح عقلاً. الخيال ينقلب بغير تأمّل إلى واقع. لاشيء يناقض الحقيقة إذن، وأنا أيضاً أعيش حقيقة مثل جسدي وأحلامي وقلبي... كلّ مافيّ ينطق بالحقيقة، إنّ الشخص الذي يسير جنبي يطلق على نفسه «المنسي» وقد اخترته أنا بوعيّ أو من دون وعي، لأنّي أبحرت أكثر من غيري بالماضي، لكنّ الناس، كما ظننت في البدء، يرونني ويرونه، ثمّ آمنتُ بنصف ظنّي فقط وليس أكثر من ذلك!!

بهذا الشكل كنّا نسير، وهو مخفيّ بألوانه المتنافرة ولحيته وطاقيته البيضاوين...

بعد أن قطعنا الطريق دخلنا إلى البيت. لم أصحب الشيخ إلى غرفة الاستقبال فضلت أن نجلس في غرفتي لنتحدّث براحة تامة، وحين التقطنا أنفاسنا من المسير سألته:

ـ هل أنت جائع؟

قهقه بصوت خليع وأجاب: أنا جائع اليوم مثلما جائع أنت إلى الأمس.

لقد انشغلت عنه طول الطريق بالسلام والتحية أو الحديث مع أصدقائي والأصحاب العابرين، لأكتشف، الآن، إنّه يحبّ الثرثرة والكلام إذ نكون وحدنا، وها هو يسألني عن الحاضر، والمستقبل. ماذا أتوقّع عن الحاضر؟ وكيف يكون شكل المستقبل؟ ولمن تكون الغلبة بعد ألف سنة؟ هل تعود عهود الفراعنة الزاهرة يوم يمّر على موت الحاضر خمسة آلاف سنة؟ وهل، وهل...؟... أنصت إليه وأردّ، أحاوره، أناقشه، أطابق رأيه أو اعترض، وربّما استفسر منه، ثمّ أخرج من الغرفة لأنّي جائع وهو جائع أيضاً.

وفي المطبخ يقع بصرُ والدتي عليّ فتخبرني أنّها ووالدي تناولا الطعام قبل قليل. ظنّا أنّي مشغول بالدراسة ولا شهيّة لي تلك اللحظة، غير أنّهما سمعا صوتاً غريباً من غرفتي، والدي يؤكّد: أنّي كنت أذاكر دروسي لذلك قال لأميّ دعيه حتّى يهضم الدرس تماماً، وبعد حين يشعر بالجوع، فابنك على أبواب امتحان صعب.. يسمعاني كلاهما أحاور الشيخ فيظناني أذاكر، والشيخ نفسه يعترض كثيراً على أعمال نابليون وبسمارك، ويحلل حرب صفين، ويعطي

الخوارج بعض الحقّ. أحاول أن أكون موضوعيّاً غير منحاز فأهرب من الخوارج إلى الاسكندر المقدوني. ياسيدي الرابض في عمق التاريخ: معاوية عدّني رافضاً فأمر بقتلي. الخوارج ظنوني عثمانياً فقتلوني، وقال الشيعة عني ناصبيّ أكره آل البيت. الجميع أصدروا عليّ حكماً بالإعدام فهربت إلى الاسكندر، ومررت بطريقي على نابليون، وصلاح الدين. ركلت من دون أن أعرف جحا المسكين وتوغلت بعيداً بعيداً إلى مملكة نبوخذ نصّر. كانت هناك حرب شرسة، أقسم أنّي شاهدتها كما هي اللحظة الساخنة، حرب بين العراقيين القدامى واليهود، ثمّ حدث السبي البابليّ، وحالما رآني الاسكندر وعرف أنّي هارب من الجميع، ومحكوم بالإعدام من كلّ الأطراف منحني الأمان. أجرى لي راتباً شهريّاً، وجعلني جنديّاً فعّالاً في فرقته الانتحاريّة المتوجهة لاحتلال الهند.

يكاد يعترف الشيخ ذو اللحية البيضاء بالحقيقة، فتقاطع والدتي: إنّك تضع الرزّ في صحنين، والمرقة كذلك، فهل تنتظر صديقاً يذاكر معك؟

انتبه إلى نفسي، انظر إلى قدر الرزّ والمرق والصينيّة الموضوعة قرب المغسلة على الطباخ الغازيّ، كم كان منظري مضحكاً وأنا انتخب صحنين للرّز والمرق، واختار تفاحتين بدلاً من واحدة. يقول والدي أنّه الإرهاق. عليّ أن أقطع المذاكرة وأذهب إلى السينما أعيش الخيال. والدتي تقول ليس الآن وقت السينما، فالامتحان يدقّ الأبواب، ويعرّف الطبيب النفسيّ الحالة فيما بعد بصفتها

ملمحاً من علامات الانفصام، وبعد صمت قصير قهقه الشيخ وعقّب:

ـ لِمَ توغلت في الماضي، ولمّا تستطع أن تحدّد طعامك بعد؟

أغضبتني عبارته قليلاً، بالضبط كما تزعج بعوضةٌ تطنّ في الظلمة أذن قطّ، وبأسوأ الاحتمالات الممكنة انصرفت بغضبي الخفيف عن أهلي والامتحان إلى الشيخ، وأدركتُ أنّي لستُ الغبي الوحيد في هذا العالم، فهو بكلّ ماأوتيه من قوّة يتعب وينام إلى أن يمر الناس قربه، بعضهم يدوسه وإذا تكلمت معه تظنّ أميّ أنّي اذاكر. . صرخت فيه قلت: يجب عليك أن تعلن عن نفسك. لاتخف نابوليون داخلك ولاتغبط حتّى الخوارج. لاتتآمر لقتال عليّ أو تضع بعض انتصاراتنا عند خطّ وهمي من خطوط قميصك، لكنْ بعد كلّ هذا، آمرك بأن تنصح الاسكندر مادام يقبل النصّح. . هتفت وصرخت. حاولت أن استفزّه بنقل آراءٍ غير صحيحة إليه. حَسْبَ رأي المدرس، وبعض التلاميذ، أحياناً أنقل إليه عبارات متضاربة، فكان يقهقه، مسكته من تلابيبه، وضربته بعنف حتى احمر وجهه، وقد ارتفع صوت أمّي من الغرفة الأخرى:

ـ أدرس من دون أن تحدث ضجّة.

ويأتيني صوت أبي: ماهذه الفوضى، أكلّ من يقرأ كتاباً يقلب الكون؟!

استمر يقهقه إلى أن خارت قواي. استسلمت لليأس، فسقطت على الأرض ألهث. شعرت أنّي بحاجة إلى نوم عميق.

نمت، وحلمت، حتّى شبعت أحلاماً ونوماً، وبعد أن استفقت وجدت أمّي تعول، وأبي يكظم دمعة حزينة. كانا يتحدّثان حولي. يدعيان أنّ الامتحان أرهقني، وعلى شفاهما كلمات عميقة أكبر من قدراتها: من هو نابليون، من هو نبوخذ نصّر. كيف أخفق ابننا في فهم التآمر، وماذا حدث بعد أن جّهز نبوخذ نصّر جيشاً يتجّه إلى الشرق بقصد سبي اليهود، فتعلّق أمّي على كلّ ماسبق بأنّ المذاكرة أرهقتني فاحتجت بعد الغذاء إلى راحة لذلك توغلت عيناي في أوّل قيلولة طافت بهما، وكنت أستعيد مادرسته خلال أحلام القيلولة..

لكنّي كنت أنظر بوجه الشيخ، ثمّ أقهقه مثله وأحتجّ فلفتّ نظرهما: ياشيخ عليك أن تظهر. إنّي أدعوك أن تظهر. لاتورطني. أرجوك وتجلس فتواصل الضحك منّي. أجاب: أنا لاأضحك منك، اشفق عليك. أنت نفسك رحلت إليّ من دون أن تستوعب كلّ التجارب السابقة. لم تكتف أيّها الإنسان الطمّاع بألف ليلة وليلة. أردت أن تبتكر شيئاً جديداً له عنوان آخر. ماذنبي أنا أن أخفقت أنت أو نجحت. ماذنبي أنا؟!

والحقيقة التي أعترف بها مرغماً أنّي لم أكن لأدرك أنّ هناك هوّة زمنية واسعة بين الحكايات تلك وزمن الامتحان الذي أمّر عليه، وعلى الشيخ أن يعترف أيضاً مثلما اعترفت أنا، يعترف بخطأه، فقد ظهر إليّ وحدي من دون الناس، وكلّمني وحدي. كنت مستهدفاً من الماضي المنسيّ مثلما كان هو مستهدفاً منّي.

كنت أقبل الشيخ وأرفضه. أصغي إليه. اقاطعه، فما دام جاء

معي وفق أمري وهو يلبس الطاقيّة البيضاء فليأت معي من دونها تلك هي أمنيتي، عندئذ اعترض بقوله:

ـ سيراني الناس!!

ـ دعهم يروك كي يصدقوني أن رأوك!!

ـ انصحك ألا تجبرني على فعل مالاطاقة لك به. «قالها بعصبيّة، وتلك هي أوّل مرّة أراه فيها يفقد أتزانه».

ـ ما الضرر من أن يروك؟

ـ سيختلفون فيّ مثلما يتّفقون فيك!

ـ دعهم يختلفون فيك.

ـ أنت ساذج!!

ـ أرجوك لاتطعن فيّ.

يفترض بوقاحة: حين يختلفون فيّ يدخلون مشاكل هم في غنى عنها. لقد كان من حسن حظّي أنّي كنت المنسي، فإذا ذكروني...

قوله لايقنعني، فأقاطعه... لاأريد أن أنصت لثرثرته... استغل قدرتي على الإبحار في الماضي فاسرق طاقية الإخفاء منه. آه كم سهرت ليالي طويلة وراقبته حتّى إذا غفا أثرت أحقاد الماضي. اندفعت فهيّجت النار الحاقدة تحت الرماد. ليقل عنّي الناس ماشاءوا، فهم لن يضرّوا نيرون، ولن ينفعوه. أحرق روما وعزف بالناي الشجيّ، وهو يراقب جثّتها تذوب بين اللهب، نسوه شاعراً، وذكروه شيطاناً، ليمنحوني صلاحيات مثل نيرون، فهذا المنسي من الجميع أصبح يزورني بعد أن اخترقت الماضي إليه، وهو يعترف

بكوني الوحيد الذي اخترت الماضي، ونظراً لكفاءتي العالية، فأنا استحق امتيازاً، ولا أقبل بالمساواة مع غيري. إنّها رغبة جنونيّة تدفعني لأن أفعل ماخططت له..

تركته نائماً فانتزعت الطاقية من على رأسه. سأظهر حسن نيتي للآخرين الأحياء. كلّ الذين حاولوا سرقة الطاقية، كان دافعهم التخفي. أرادوا أن يستغلوها لأغراضهم الشخصيّة. غير أنّي لاأريد أن أختفي. كفاني اختفاء. أريده أن يظهر هو بالذات، فيتجلّى للعيون مثلما تجلّى لعيني، وها هو يصحو فيبكي بكاء مرّاً. أنا لاأريد الطاقية. أريدك أن تأتي معي فقط، سيراك الناس. ثمّ أعيدها ثانية لك.

وهو يعرف أسباب تصرّفي جيداً. أخبرته أنّ المعلومات التي غزت عقولهم من الماضي أصبحت حقائق غير قابلة للتصديق، وبديهيّات لاتتغيّر، أرغب أن يتجّردوا منها، ليقولوا عني ماشاءوا، وكانت حجّته الوحيدة أنّي سأثير حفيظتهم، سأجعل الأخ يقتل أخاه، وابن الوطن الواحد يصرع مواطنه. يصف تصرُفي بالأهوج، ويحذّرني بأنّي ربما سأكون الضحيّة، فقدت أعصابي تماماً واتهمته بالكذب. اتهمني بالحمق والطيش وأدعى أنّ شخصاً مثلي سيحطّم العالم ونفسه، ولأنّ العالم مجموع وأنا فرد فستكون النتيجة على النقيض مما أتصوّر.

جاء معي إلى البيت ثانية.

هذه هي المرّة الثانية حيث أذهب إليه وانتشله من تحت الظلال

كما انتشلته من قبل، وكانت الطاقيّة معي. كان حزيناً غاضباً منّي، وخلال الطريق هدأ غضبه، وزاد حزنه، طول الدرب رآني بعض الأصدقاء حيّوني، ونظروا إليه مستغربين، لم أقدّمه لأيّ منهم، كأنّهم يعرفونه، خلتهم يعرَفونه، وغاب عن ذهني أنّهم يتساؤلون عنه. من هو؟ كيف عرفته؟ وأين التقينا؟ وحين دخلت البيت ـ بيتنا ـ وجدت أمّي تسألني عن الشيخ وتجيب. قالت: هو درويش من أولياء الله الصالحين. والدتي تعرف الناس من حياتهم، وتدرك الأشخاص من نظراتهم، ولي صالح التقاه ابنها عبر الطريق، فالتقطه ليضفي على البيت بركته. أبي، بصفته إنساناً مثقفاً، رفض مقولة أمّي، اتهمها بالجهل. هذا إنسان محتال يتاجر بالهيئة والمنظر. ليس أبي، وفق تصوّر أمّي أوّل شخص يتّهم الأولياء بالشعوذة والجنون، فقد اتّهم المارقون الأنبياء من قبل بالجنون، كان أبي يتحدّث بعصبيّة فيتناثر الرذاذ من بين شفتيه: لاتنسي ياامرأة أنّ ابننا طالب صغير العقل، سريعاً ماتخدعه المظاهر، يرى المؤمن كافراً، والكافر مؤمناً. يظنّ أمريكا أقوى من روسيا في اللحظة نفسها يظنّ روسيا أقوى من أمريكا. إنّه شاب طائش. ظلّت والدتي تعارض، لأقلّ هفوة بينهما تحدث مشكلة. هي تقول نعم، وهو يردّد لا، هي ترى الشيخ وليّاً من أولياء الله يشبه الخضر الذي رأته في المنام بل هو هو، وهو يراه دجالاً بلحية طويلة، ثمّ نشب الخلاف... وتطوّر إلى صخب عنيف. أقسم والدي أن يضع حدّاً لعناد رافقها سنين طويلة وأقسمت هي ألا تعود إلى البيت إلّا إذا احترم الدين والمبادىء

الروحيّة. أنت كافر. كافر تستهزىء بأولياء الله الصاحلين، ومن لا دين له لا أمان له. من يدريها ربما مثّل عليها دور الزوج المخلص كلّ تلك السنين وعاشر امرأة أو أكثر غيرها اليوم بالذات انكشف لها الغطاء عن شخصيّة أبي. فجاءت إليّ تشكو همومها. ياولدي: بعد عمر طويل أكتشفت أنّ والدك رجلٌ لا تطاق عشرته، وطلبت منّي أنّ أحدد موقفي حول مشكلة أنا خلقتها لي بنفسي. أأقف معها أم معه. الحياد مرفوض، والطرفان المتنازعان يطلبان منّي أن اتحلّى بالجرأة في اتخاذ قراري.

لعنه الله على المنسي ذلك الشيخ الذي يجلس في غرفتي يحدّثني وأحدّثه، ثم يختلف حوله والداي. أمي تقول ابنك يارجل متعب أعرضه على طبيب أنّه يحدّث نفسه، وهو يجيب تكفيني مشاكل البيت، فلِمَ التهويل في الأمر، الولد يجلس في غرفته وحيداً يذاكر، ويقرأ دروسه بصوت عال. ليس مريضاً، لاشكّ أنّي لست مريضاً، مثلما قال أبي، وها أنذا ألوذ بذلك الذي يطلق على نفسه منسيّاً. سلبته طاقيّة الإخفاء وأجبرته على الحضور معي ليراه الناس. كان يمشي جنبي حين وقع عليه بصر الناس قبل أن يقع عليه بصر أمي وأبي. صديقٌ لي ألقى عليّ التحيّة وانصرف. صديق آخر تصرّف كالأول. كانت عيون الأصدقاء والأعداء تنظر إلى الشيخ. رجل نحيف القامة ضامر البطن ذو لحية بيضاء طويلة والغريب في الأمر أنّه يرتدي قميصاً وسروالاً ملونين كما اتفق: الأخضر جنب الأحمر، والأزرق يتخلل الورديّ. الأصفر ينبثق من الكحلي. الشارع

امتصّ في غضون لحظات المشهد. من حقّهم أن يسألوا أين عثرت على الشيخ. سأذكر الحقيقة: أيّها السادة إنّي نجحت وأحرزت تقدّماً رائعاً بكلّ الميادين حصلتُ على علامات ممتازة في الرياضيات والانكليزيّ، واللغة العربيّة، والكيمياء اجتزت اختبارها. بقي أمامي التاريخ. بحثت كلّ ثقوبه وأوسعته دراسة وتأمّلاً، وفي أقصى نقطة منه لم يعبرها أحدٌ قبلي، ولم يخض غمارها أيّ بشر، وجدت هذا الشيخ. كم مرّ الناس فوقه فما شعروا به. أخفقت أبصاركم في العثور عليه، أما أنا فقد صحبته ليكون معي بعد أن عثرت عليه وحيداً منسياً.

كانت النتيجة أن هجرت والدتي البيت ولوّح والدي بالطلاق، فانقلب حسن النيّة الذي قصدته إلى تيّار من الحقد والغضب، وهناك في الشارع كان الناس يغلون من الغيظ والتأييد. أدّعى بعضهم أنّ فلاناً ـ يعنون أنا ـ جاء برجل مجهول، الشيخ لانعرف أصله ولا فصله، من يكون وبأية طريقة التقيته واعترض صوت على تصرّفي بأنّه لو كلّ شخص من سكان مدينتنا التقى مشرّداً أو آخر غامضاً في هذه الدنيا الواسعة التي تكاد تغصّ بالغموض والتشرّد، لاكتضّت المدينة الصغيرة الآمنة بالناس، ولحدثت أزمة في المواصلات والطعام والملبس والسكن، لِمَ نفتح الباب كما يقول مختار منطقتنا على مصراعيه لأيّة بادرة جديدة لاندرك أبعادها الحاليّة؟!

انتقلت المعركة من البيت إلى الشارع، وعادت إليّ أمّي حزينة، سألتني عن الشيخ أين التقيته؟ هل أصارحها بالحقيقة؟!

بادىء ذي بدء نسيت أن تسألني عن مكان اللقاء وزمانه، وعقب المشاجرة مع أبي تذكرت نسيانها، ترددت أن أشرح الحقيقة الهائلة فأعلن أنّي وجدت الشيخ فيما بعد (ألف ليلة وليلة) فأنا أقف بين الجنون والعقل، بين الخيال والحقيقة. لاأريد أن أبدأ بالحقيقة إطلاقاً لأنّي إذا بدأت بها سأنتهي إلى الخيال، أما حين أبدأ بالخيال فستنتهي رحلتي الطويلة القصيرة بالواقع. لا أنكر أنّ جميع الناس كذبوني أو صدقوني. أتذكّر بعضهم دافعوا عنّي واضطرّوا إلى معادات آخرين، لكنني يمكن أن ألخصّ في هذه العجالة بعض وجهات النظر المتضاربة حول المسألة:

بعض الناس قالوا عن الشيخ أنّه مجنون ظلّ يسير تائهاً حتّى التقيته فدعوته إلى منزلنا، وهذا الرأي لايختلف كثيراً عن رأي والدي.

وتحدّثت مجموعة صغيرة تطلق على نفسها المذهب الطبيعي حول مرض يسمّى فقدان الذاكرة، وخرف الشيخوخة.

تجمعّ آخر اتهم الشيخ بصفة غريبة. قالوا عنه هو جاسوس محترف لدولة مجاورة وإنّي خدعت بمظهره ولحيته، وإلاّ فلِمَ يظهر فجأة في مثل هذه الظروف!!

طرف رابع يدّعي أن الشيخ أخو أبي غير الشقيق من جدّي، وتلك حكاية أخرى، فجدّي قبل أن يدخل بجدتي كان على سبيل الفرض متزوّجاً من إمرأة أجنبيّة والشيخ هو ابنه ـ أي عمّي ـ جاء ليزورنا..

وهناك آراء منفردة تشذّ عن آراء الجماعات: أحدهم يتّهم الشيخ بكونه مهرباً كبيراً ونحن الثلاثة على علاقة قديمة به، آخر يراه ساحراً يقرأ المستقبل وثالث لا مع هؤلاء ولا مع أولئك. وقد تحقّقت من بعض الإشاعات بنفسي يوم زارني بعضَ الغرباء: وجوه مختلفة متعبة بعضها مريض، وآخرون يعانون من متاعب اقتصاديّة. آخرون ينتظرون عودة أبنائهم من الجنديّة. طلبوا منّي أن يقابلوا الشيخ الساحر فيساعدهم على عودة أبنائهم، ولم يدركوا بعد أنّ حلول الشيخ بضيافتي حطّم أقرب الروابط إليّ، وفصل بين أمّي وأبي، فجعلني أواجه العالم وحدي..

لنفرض أنّه شيخ صالح، فأين وكيف التقيته؟ كان الشارع يعلق بتلك العبارة، أنك لم تخرج من البيت، كيف غفلنا عنك، فوجدناك بصحبة هذا الشيخ الجليل ذي اللحية البيضاء. هذا تعليق والدتي. أمّا أبي فقد صرخ قائلاً: هو التعب والإرهاق. لندع الطبيب أفضل أن ابنك يا امرأة يحدث نفسه، ليس مريضاً ولكنّه يذاكر دروسه ويستعيدها. لي القدرة على التخيّل. وفق تصوّر والدتي، فأنا أقدر الناس تماماً على تشخيص الحدث التاريخي، وفي هذا شيء من الصحّة، وكان الطبيب الواقف جنب سريري ينصت إلى حديث والديّ باهتمام، ويعلن عن تطابق وجهة نظره مع احتمالات افترضتها أمّي بسبب الارهاق وصعوبة الدرس، والشيء العجيب المطروح للنقاش والفرض ليس من قبل أبويّ فقط بل من المجتمع كلّه، هو كيف اجتزت الامتحانات الصعبة كالفيزياء

والكيمياء واللغة الاجنبيّة وأخفقت في درس سهل مثل التاريخ ؟!

وحدي أنا أعرف السبب ولاأقدر أنْ أبوح به . إنّ زمن هارون الرشيد يحتلّ نفسي، لكنّي لم أفكّر بالخلافة قطّ . فكّرت أن أكون الرجل الذي يحتلّ أخصب اللحظات وأقدرها على العطاء . لاأحبّ أن أكون هارون الرشيد بل القائد الذي فتح العالم . لاأريد أن أكون هتلر أو موسوليني أو إيزنهاور ولا حتّى تشرشل نفسه، على الرغم من قرب التاريخ إليّ فهؤلاء بعيدون عن اللحظات الخصبة . دائماً أكون رجال اللحظة الحاسمة : رومل، مونتغمري، الاسكندر، عنترة، نيرون، أو غزالة الخارجيّة .

النصّر أو الهزيمة لايهمّان بِعُرفي، بل الذي يهمّ صُنْع اللحظة الخصبة بأي ثمن، وبأيّ أسلوب كان .

التشخيص السابق أقرّه الطبيب، وأطلق عليه اسماً لا أذكره، أيّ أنّه وجد ظاهرة قبل ظاهرة الانفصام التي اكتشفها أخيراً فيّ كما يدعي، وكنتُ قد قرّرت أن أغادر غرفتي، وآوي إلى الشيخ ثانية لأحلّ اشتباهاً دفع الناس إلى ورط متباينة لايعرفون كيف يتخلّصون منها . طاقية الإخفاء في جيبي والشيخ يجلس هادئاً ساكناً، فبعد قليل أعود إليه لأثبت أنّي على حق

كنتُ قد خرجت إلى الشارع فرأيت الفوضى ماثلة أمامي . لابأس أيّها السادة أنّي أعرف كلّ شيء . أنتم مختلفون حول الشيخ . أبي وأمي مختلفان حوله أيضاً ماذا تقولون : ساحر : نعم!! إنّه أكبر مهّرب عرفه التاريخ، لأنّكم لاتستطيعون رؤيته حين يصّر على ألاّ

تروه. رجلٌ صالح وفق مايتصّوره بعضكم: وأنا موافق على وصفه بالولي. أقسمُ أنّي رأيته يجلس على حافة الساقية، ويمشي فوق الماء يصلّي. يحفظ سور القرآن الكريم، والكتب المنزلة، فإذا مامسح على مريض ممسوس عاد إليه بصره، وإذا مالامست أصابع كفّه عينين غاض فيهما العمى فاض منهما النور والرؤيا. هو كلّ ماتظنونه. وفوق ماتتصوّرونه فلم أنتم مختلفون.

خلتُ كلامي يقنع الأخرين. كانوا يريدون، ضيفاً وفق تصوّرهم. الذين يحبّون السحر، ويحلمون به، يريدونه ساحراً فقط، لايعرف من هذه الحياة إلّا السحر. أمّا الذين يهيمون في الله فيرونه وليّاً فقط، ومن يفكّرون بالمرض والطبّ رأوه طبيباً عظيماً، لا ساحراً ولا مهرّباً. اختلف القوم فيه، وتطوّر الاختلاف والانقسام إلى حرب شعواء، فاستخدمت الفئات المتناحرة أبسط أسلحتها وأعقدها: لجأوا إلى الركل واللكم. أطلقوا الرصاص صبّوا القذائف وحمم الطائرات.. رأيت الدماء تسيل، والأجساد تتهشّم، ولم يقولوا بعد عنّي إنّي كاذب، ولم ينكروا حقيقة وجوده، لكنّي حين ذكّرتهم به توثّب كلّ منهم لينسبه إليه. حتّى يئست فعدت إلى غرفتي. كان ينتظرني وحده. فوالدي ـ كما أظنّ ـ لحق بوالدتي يسترضيها بعد أن تركت البيت ولجأت ـ شأنها كلما نشب خلاف بينهما ـ إلى بيت جدّي ولمجرد أن دخلت قابلني الشيخ بابتسامة ساخرة، واستطرد قبل أن أسأله عن سرّ سخريته: لمْ تقنعهم ولمْ يُقنِعوك؟

تجاهلت كلامه. أمعنت النظر بوجهه طويلاً كأنّي أراه للمرّة الأولى. رأيته حين كان من المحال على الناس أن يروه، ورأيته حين كان من الممكن على الناس أن يروه، فبقي هو هو، تغيّرت أنا وهم، فهل أكون سبب خراب العالم لأنّي انتشلته من سكونه وخلوته إلى العالم الصاخب؟

وفي لحظات التأمّل الثقيل استسلمتُ لحكمته وأقررت بالهزيمة... قررت أن أطلق سراحه وأعتذر منه. لقد حذّرني فتجاهلت نصيحته. أنا الآن أظهر ندمي على تسرّعي وسوء فهمي. طلبت منه الرحيل إلى حيث يشاء، فشرط عليّ شرطاً أقرب إلى الافتراض. أدّعى أنّه كان نائماً وغافلاً عن نفسه حتّى نبّهته. أيقظته من أحلامه فدعوته، هذه اللحظة هو عاجزٌ عن الانصهار داخل الزمن الكثيف الذي كان منصهراً فيه، سيرحل عنّي لكنّه سيزورني بين فترة وأخرى. كانَ «المنسيّ» فتذكرته وذكّرته بي وبنفسي، وذكّرت الناس به، عيونهم رأته، وأبصارهم انغرزت بجسده بعد أن خلع الطاقيّة ومشى معي من الخربة إلى البيت. أستطيع أن أتحرّر منه بعض الوقت وليس الوقت كلّه وأنّه راحل هذه الساعة بشرطه لا بشروطي.

كنت حزيناً ومتعباً حين رحل وتركني وحدي في الغرفة، وضع طاقيّة الإخفاء على رأسه، فلم تدركه العيون إلّا عيناي!!

وكنت أضعف وحدي أمام الصمت، والخواء العميق!!

أمّي غادرت البيت حزينة، وأبي لا أعرف مكانه، الخارج

يغلي. حاصرتُ نفسي بتصرّفي الأهوج. مالي والماضي، والذكرى والنسيان. كثيرون غيري أعرضوا عن تلك المغامرة، وأصررت عليها.. وها أنا أعيش الخواء والخوف، لأسباب لا أدركها حتّى بعد رحيله.

الناس منذ تلك اللحظة يطلبونني، بوجهه غضب، وهو يهتف بمرارة: مجنون أنت. مجنونة أمك. بيت كلّه مجانين. ردّدت مع نفسي لأنني لم أجرؤ على تحدّيه: وماذا عن الخارج

كان يعقبّ بعصبيّة: أتعرف أنّها تصرّ على الانفصال.

آه كم ستكون المصيبة فادحة. ماذا سيقول الناس عنّي، طلّقت أمّه أباه وهو في العشرين من عمره. الناس مشغولون بالشيخ، والنسيان، يتقاتلون حول الماضي، لكنّهم سيستفيقون في يوم ما ويدركون الفضيحة، فتكون الشاغل الحاضر لهم عن ماضيهم الذي سئموه وملهم.

ولكني أهرب من الأجواء المخيفة الخاوية لأعيد أمّي. أدعيت المرض. استلقيت على الفراش أئنّ، واكتشفت أنّ لي القدرة الهائلة على التمثيل مثلما للشيخ قدرته على التخفّي. عرفت مواهبي وإمكاناتي الخصبة، مع الأنين أستطيع أن أجعل جبيني ينزّ عرقاً ومع الصّرخة المدوّية ترتفع حرارة جسدي عالياً، ثمّ أتلاعب بقسمات وجهي تحت الألم المزعوم. سأزعق مثلما يزعق الناس في الخارج، وأصرخ كما تصرخ والدتي، فعليّ ألا أبقى صامتاً وسط عاصفة من الضجيج.

اضطرت أمي إلى الحضور على الفور. كانت في بيت جدّي، ووجد والدي نفسه ملزماً أن يخبر الأصدقاء والجيران بمرضي. لم يحاولوا أن يمسّوني بسوء بل اختلفوا وتنازعوا حول شخصيّة الشيخ الوقور الذي رافقني ذات يوم واختفى. كانوا يحاولون إدراك هويّته فقط: أهو ولي أم مهرب أو مشرّد التقطته من الشارع أو.. أو.. بعضهم عقد عليه آمالاً عريضة، أمّا أمّي فكانت قبل تحوّلها الأخير إلى الصمت والحزن بسبب صدمة المرض التي راودتني - كانت ترى فيه وليّاً يقدر على أن يهبها بركاته لتدخل الجنّة، حتّى الكافرون والعلمانيّون ظنّوه شيئاً مايستطيعون وفق شكله المنظور أن يحقّقوا بعض فرضياتهم المزعومة.

هدأ بيتنا كما هدأ الشارع من قبل، كلّهم بانتظار أن أشفى لكي أعلن لهم عن حقيقة الشيخ ذي اللحية البيضاء، ولست مستعداً أن أظلّ مستلقياً في الفراش أدّعي المرض طول عمري.

أخذتني أمّي بين ذراعيها، ومسحت جبيني بيدها. صدمتها حرارتي المرتفعة، وشيئاً فشيئاً فتحت عينيّ، وبدأت أهمس.

قالت: ستشفى مادمت تعرّقت.

وقال أبي: لاتقلق حول الامتحان فصحّتك أهم.

كانا يتطلّعان بوجهي، ثمّ يتطلّع كلّ منهما بوجه الآخر، وعلى شفاههما سؤال وحيرة. لقد رأيا الشيخ ولاشك، ثمّ اختفى فجأة، إنّهما لايطلبان منّي تعليلاً لكنهما يحاولان أن يعللا الأمر وفق رؤيتهما الخاصّة: في البدء دخلت وحدي، وأخذت صحنين، وكأسين،

كـأنّ معي ضيفاً. لم تقـع أبصارهمـا على الضيف، وبعـد فترة رأيـاه يرافقني، واقسم أنّهما رأياه، كنت أتحدّث فيما يشبـه النائم: قلت أنّي رأيت شيخـاً زارني في الحلم، وكنت أسبح في بـركة من المـاء إلى أن وجـدت رأسي في حـضن أمّـي. قـالت أنّـه ولي مـن أوليـاء الله الصالحين. بقي والدي صامتاً، أمّا والدتي فراحت تسـألني فجأة: صحيح أين صديقك الولي؟

إنّهما يتـذكرانـه. فكيف أخفي الخبر. في تلك اللحـظة سـارع والـدي إلى غمزهـا بعينه، وبـدأ يعقّب، خشيت أن يكون حـديثـه بداية لشجار جديد، غير أنّه كان متّفقاً مع والدتي هذه المرة.

قال: أتعنين الشيخ الذي رآه في الحلم؟

ظلّت والدتي صامتة، وراح أبي يتحدّث: ظنّ نفسه أنّه كان في حلم. أعاد عبارتـه ليلفت نظري. لا أعـرفه كـاذباً قطّ، ولا أعـرف والدتي تكذب، وها هما يغالطان حواسهما ويظنان أنّهما كانا في حلم.

قـالت أمّي: رأيت ياعبـد الله، وهـذا هـو اسم أبي، كـان هـو يناديها لحظات الصّفاء بكنيتها التي أطلقها عليها أهلها وهي صغـيرة «أم الخير»، قالت: ياعبد الله رأيت ذات يوم أنّ شيخاً مهيب الطلعة يـرافق ابننا إلى البيت، فعـاود هو شرح حلمـه النهاري، وأقسم أنـا كذلك أنّهما رأياه، لكنْ في الواقـع وليس في الحلم، كما أنّي لا أرغب في إعادة الشقاق إليهما. يتشاجران، وستتشاجـر المدينـة كلّها حـول الشيـخ أيضاً، وفي هـذه اللحظة لاخـوف مـادام الحـلّ بيـدي. إن انسجام والدّي يعني اتفاق المدينة كلّها، وأنـا مخيّرٌ بـين اثنتين إمّـا أن

أقر بالواقع وأعترف بأنّ ما رأيته هو حلم على الرغم من أنّي لمسته وتحدثت معه، وربّما رأيته يأكل ويشرب وينام، فيهدأ الجميع على حسابي أو أصرّ بأنّ الشيخ حقيقة نزلت بي وبالآخرين، فيستمرّ الشقاق والنزاع لتصبح المدينة كلّها خراباً وتمتلأ دماراً ورعباً.

معادلة صعبة لم أحسم أحد طرفيها بعد، وإن كنت قد بدأت أفكّر بحسمها لمصلحة الآخرين!!

وخلال ساعات معدودة انتشر الخبر في المدينة. تحوّل الواقع إلى حلم، وأحلام يقظة، كلّ من رآني وحيّاني. أنا أسير جنب الشيخ ظنّ نفسه يحلم بي. إنّه حلم عامٌ، بعبارة أدقّ صادفت المدينة نفسها تحلم بي أرافق شيخاً مهيب الطلعة ذا لحية بيضاء. نسوا تماماً القميص والسروال والألوان المتنافرة. تذكروا فقط لحيته كأن الأهالي على اختلاف أعمارهم، وتفاوت أنماط التفكير، وتنوّع نظراتهم، كأنّهم أصيبوا جميعاً بعمى الألوان ماعدا لوناً واحداً تذكروه هو البياض فقط، فأين رحلت الصفرة؟ وهل أنقرض الأزرق؟ كيف غاب عن العيون الأخضر؟ ألوان مختلفة حملها الشيخ معه، نسيتها ذاكرة المدينة، وعاشت البياض وحده، فهل أكون مخطئاً حين أقول إنّ المفاجأة صدمتني، فأنا مازلت أعيش اختلاف اللون، وتفاوت الضوء، والمدينة تؤمن بلون واحدٍ، وتنسى بقيّة الألوان.

يوم كانت طاقية الإخفاء في جيبي التقاني أشخاص مختلفو الاتجاهات والميول. بعضهم يؤمن بقوى روحيّة تسير العالم، وبعضهم يؤمن بالطبيعة فقط، هؤلاء أيضاً نسوا إيمانهم بالطبيعة

والحواس. ظنّوا أنفسهم يحلمون كنت بعد هـذا الحادث أقـرب إلى المعجزة، وكان من المفروض أن أبقى معجزة البلد!!

أصبحت معجزة البلد بعد أن كـذّبت نفسي وحواسي. أرادوني أن أنكـر الواقـع، وأدّعي أنّ مارأيتـه وسمعتـه وتحـدّثت معـه قبـل ساعات قليلة كان حلماً لا أكثر، ومثلما حلمت بشيء حقيقي حلمـوا هم بي، أي وفق تصوّرهم كان الحدث تبادل أحلام!!

لعلهم تعبوا من الشقاق والصراع حول تلك الحقيقة فحوّلوهـا إلى حلم. أنكـروا أنّهم رأوهـا في النـوم فقط أي أقـرّوا الخيـال عـلى حساب الواقع.

ايّه أيّها الشيخ ،لقد حذّرتني مراراً، قلتَ لي في البدء إنّي سأحطم نفسي قبل الآخرين، وكنت مغروراً، دفعني التفاؤل الزائد عن الحدّ إلى التـوغل فيـك، وسحبك من مكمنـك لانفض الغبار عنـك غير مبال باعتراضك واحتجاجك. هذه اللحظة أدركت أنّ أقرب طريق إلى أدمر العالم هو أن أدمرّ نفسي قبله!!

كـان من المفروض أن أبقى معجـزة البلد بتكذيبي نفسي أمـام والديّ وإنكاري للواقع إنكاراً تامّاً.

أجلْ.. صدّقني المؤمن والكافر لكي يتبرّكا بي. السلطة نفسهـا بدأت تخافني وتتودّد إليّ. لا أبالـغ في ذلك إطـلاقاً، فحـين أنكرت الـواقع وأدعيت الحلم، وجـدت السلطة نفسها بكـلّ مـاتملكـه من وسـائـل للقتـل والـدمـار، وإمكـانـات هـائلة في مجـالات الحقـول المختلفة، تخافني. بدأت تتقرّب إليّ، ولا أنكـر أنّهم في البدايـة رأوا

الشيخ المهيب معي ، وأن الأمر كاد يوقعني بمأزق خطير. زارني أحد المسؤولين وسألني عن رجل كبير السنّ ذي لحية بيضاء يرتدي ملابس غريبة الألوان (لاحظ أنّهم كانوا يركّزون على اللون سابقاً) رآه يمشي معي ، وقتها أرتدى المنسيّ طاقية الإخفاء وسمع التحقيق كلّه. أدّعيت كذباً أنّي التقيت مصادفة ذلك الشيخ وواجب الضيافة يلزمني بأن أدعوه إلى المنزل لأنّه غريب.

ياسيدي الضابط هل تنكر إشفاقي على الرجل؟ وهل ترغب أن ألغي تقليداً قديماً ورثناه عن الأجداد يسمّى «الضيافة». ليس من المنطقي أن أترك رجلاً جائعاً على قارعة الطريق. لامنشورات معه، ولا كتب ممنوعة. لايحمل سلاحاً أو أيّة آلة حادّة. كان خالي الوفاض من كلّ شيء. أنت تعترف أنّ الشيخ كبير السن من يراه يظنّه مجنوناً أو شحاذاً انقطع به السبيل.

لا اعتراض للضابط على أقوالي، لاسيما أنّي زججت بالتقاليد والعادات القديمة سوى لفتةٍ من الضابط بأنّ عليّ أن أكون حذراً. وما الدافع من قبله إلا هيئة الشيخ الغريبة التي دعته لاستدعائي كي يعرف منّي الحقيقة بصفتي مضيّفاً له .(ولا أريد الرجوع إلى مسالة الألوان إنّما أذكّر بها فقط).

الآن الدولة نفسها تعتقد أنّها رأت الحدث على شكل حلم. . . نعم حلموا في اليقظة أو المنام، وأدعى بعضهم أنّ البركة حلّت بأرضهم، فأنا كنت أسير مع شيخ مهيب الطلعة في الشوارع. وكانت المدينة تغلي، ولامجال إلى الهدوء إلّا إذا أنكرت الواقع

وأدعيت الوهم، سيعود إلى العالم اتزانه على حساب فقداني التوازن!!

أيّة ورطة أوقعت نفسي فيها، مالي وشهريار أو شهرزاد. دع أيّ عبد يزني بآلاف الملكات البيض، ودع الملك الشكّاك يقتل كلّ ليلة امرأة. اترك هتلر يخسر الحرب ولا تهبّ لنجدته، وانصرف عن الاسكندر والخوارج، وقف على التلّ في حرب صفّين، أيّها الغبي أنّ المنسيّ يحدّثك، وأنت تركب رأسك، تعاند وتناقش، تنفض التراب عن ألوانه المتنافرة فيملأ الغبار عينيك!!

وفجأة ران السكون على المكان...

فجأة طبع الهدوء الأرض. سيرى العالم عمّا قريب الخراب الذي خلّفه الشقاق فيظنّ أنّ كلّ ذلك كان من جرّاء حلم بغيض، فبعد كلّ هذا الهدوء سيرون عمّا قريب الشاة تمشي مع الذئب، والأسد يسير جنب الخروف. لاقتل، لا صراع، ولا موت. الأرض اكتفت مما أكلت، ولم يعد فيها مكان لقبر جديد. أيها الملوك العظام الذين تحدّتهم شهرزاد بـ (ألف ليلة وليلة) هو السلام يخيّم على الأرض، والكهنة يكتبون عهداً جديداً يبدأ بهذه العبارة: في البدء كان هناك وئام، وجيلنا محظوظ جدّاً لأنّه سيعيش إلى الأبد!!

وأنا أرى المستقبل أمامي مليئاً بالصور الخارقة: طاقات الورود تقدّم إليّ. الناس يزورون بيتنا للتبرك بي. السلطان نفسه يركع أمامي.. كلّ مشاكل العالم قبضت عليها بيدي، ووضعت علاجاً لها، وها أنا أقوم بحلّ أكبر مشكلة في العالم وهي الحرب والنزاع.

كانوا يتقاتلون كالذ ئاب وقد عادوا إلى السلام والحبّ. صافح أحدهم الآخر، وانتصرت الحياة على الموت بكلمة واحدة منّي وذلك حين أنكرت الواقع وأدعيت أنّ ما رأيته ولمسته وتحدّثت معه كان أحد الأحلام . . .

غير أنّ الواقع الجديد لم يدم طويلاً، فلم أنعم طويلاً بأمنيتي الجديدة التي ظننتها تخلّصني ومدينتي من ورطة «المنسيّ».

مع الغروب . . زارني الشيخ مرّة أخرى. اقتحم عليّ غرفتي فوقع بصري عليه . . إنّه هو هو لاتغيير في شكله إطلاقاً . .

وقفت أمامه مذهولاً، تحوّل الذهول إلى غضب وثورة فصحت فيه بحنق :

ـ لاأظنّك فقدت شيئاً ما، وعدت لاسترجاعه.

كان يقف أمامي بقامته العجوز، ولباسه المتعدّد الألوان لاتغيير طرأ عليه إطلاقاً:

ـ حين كنتَ تبحث عنّي كنتُ في غنى عنك وحين أيقظتني من رقادي الطويل شعرتُ بحاجتي إليك.

فأجبته وغضبي يزداد:

ـ بعد كلّ مامرّ شعرتُ برغبتي عنك.

فخطا داخل الغرفة، وقاطعني :

ـ سأحدّثك بصراحة. لقد جئتني مرّتين، أمرتني بصحبتك في المرّة الأولى، ثمّ رجعتُ إلى مكاني ورقدتُ، فجئت ثانية لتوقظني، ولم أعد أعرْف مكاني بالضبط . .

ـ أنا على استعداد لأن أدلّك عليه.

ـ حتّى لو فعلت ذلك فلن أستطيع الرقاد ثانية، ومادمت قد صحوت إلى الأبد، فعليك أن تسمعني: سأعيش معك. أتكلّم وأنصت إليك...

تهاويت على المقعد القريب:

ـ ياسيدي: كلّ أولئك المشهورين أصدقاؤك: شهريار، هتلر، الاسكندر، شهرزاد، الملك لير، تيمورلنك، سوف يعجز لساني عن إحصاء كلّ مرافقيك، فلم أنا بالذات؟!

ـ إنّك تتغابى. تتصنّع الغباء. أتنكر أنّك مررت جنبي وتطلّعت فيّ. تعمدّت أن تتحدّث معي. هربت منك، فلحقتني ثانية. لا لن أخرج من عندك لحظة!! لاتفكر بذلك!!

وفي لحظة قصيرة تعادل الدهر كلّه التقت عيناي بعينيه، ومع عمق النظرات تأجج الغضب داخلي، فامتدّت يدي نحو الطاقية، خلعتها عن رأسه دون أن يبدي أيّة مقاومة، ثمّ اندفعت إلى الخارج وأنا أصرخ بالمارّة:

أيّها الناس: تعالوا.. قابلوه وجهاً لوجه. إنّه في غرفتي سترونه لأنّي أخذت طاقية الإخفاء منه.

طفت الشوارع، والناس يحثّون السير خلفي للحاق بي، ثمّ انحرفت من أقرب ممرّ إلى المنزل. كانت المسيرة ضخمة أعجز عن إحصائها. شيوخ، شبان، أطفال، نساء، عجائز، شابات مؤمنون، وكفرة.. وحين وصلت إلى البيت اندفعت داخل المطبخ.

رفعت من على المنضدة سكينة حادة تستخدمها والدتي في تقطيع اللحم والبصل. . . اندفعت داخل الغرفة بكلّ قوتي. . .

كأنّي كنت السيل.

أو كأنّي عاصفة تهبّ بحقد. .

كانت والدتي تندفع ورائي.

ومعها بعض الناس. . .

رحت أطعنه. . . والدم يسيل من جسده وأنا أصرخ: لابدّ أن أقتلك. . . ستموت بين يديّ. . . ثمّ اهتف بالناس: أمسكوه! هل ترونه. لاشكّ أنكم ترونه، فهل تصدّقونني الآن؟ ها هو أمامكم. . . تجمع حولي الناس. أنقضّ بعضهم على ساعدي. كبّلوا يدي ورجليّ كانت أميّ تبكي وأبي يمسح دمعة تغالب رجولته. . . تلك الساعة سقطت شبه مغميّ عليّ. . . لاشيء غيرُ أصوات الناس، وكلمات الأسف:

أحضروا الطبيب. . إنّه بحاجة إلى مهدىء. . .

كنت، بعد لحظات، مضطجعاً على السرير. . . يقف بالقرب منّي أبي وأمّي يحادثان رجلاً يرتدي قميصاً أبيض. . . إنّه شيخ في السبعين من عمره. . .

لاأدري أيّهما هو. . . ربّما يكون صاحبي الشيخ أبدل قميصه الملون. . . على أنّي كنت أنصت ولا أعي شيئاً. . . والدنيا من حولي تدور. . . وآخر ماوقعت عليه عيناي أن البياض طغى على جميع الألوان من حولي.

عزيزي درويش

رواية قصيرة

عزيزي درويش :

اليوم أصبحت في دائرة مساحتها سبعة كيلومترات فقط .

حاصرتني الدنيا، فتراجعت نحو شوارع الطفولة . أين أذهب إن لم أهرب إلى طفولتي؟ خلّفت بيتي على البحر محطّماً كالسفينة وانحسرت، عندما وجدت الرعب أمامي، ولا مجال أمامي إلاّ الحارة القديمة . . .

هنا في هذه اللحظة بالذات تذكّرت السيدة والدتك، تلك المرأة التي عرفناها ونحن أطفال لاترضخ للتعب والكسل . كانت كالحمامة تنقل إلينا الأخبار السارّة . . .

لعلّك، ياعزيزي، تسأل لِمَ بدأتُ أكتب إليك؟؟

من حقّك أن تعرف السبب، فالبركان الحاضر أشعل ذاكرتي . كلّكم تعرفون أن صلتي بالماضي انقطعت يوم غادرتكم إلى الجزء الشرقي بعد أن ذبت في المجتمع الارستقراطيّ واندمجت فيه . . .

أصبحتُ غنيّاً جدّاً . . .

وفجأة . . . تحولّت الآمال إلى ركام . . .

اشتعل البركان فأحرق ماحوله ولم يبق إلّا ذكريات الطفولة . . . وسوف لن أحدّثك عن طريقة وصولي، ورجوعي إلى الماضي، فبإمكانك أن تلتقي العشرات ممّن عاشوا الظروف ذاتها، والمحنة نفسها، أو أن تقرأ وصف الصحف لمعاناة الناس. الحديث طويل ومتشعّب سوى إنّ تكراره جعله مبتذلاً للغاية.

كذلك لن أحدّثك كيف حصلت على قبر صغير في حيّنا القديم وأطلقت عليه قبوا. إنّ الحصول على ملجأ في عمارة مهجورة لم يعد مشكلة . . . أناسٌ يتركون مساكنهم ليحتلوا مساكن متروكة، وآخرون يحتلون مساكن الراحلين. وقد ألقيتُ ـ خلال الصدمة ـ عصا الترحال في قبو ضيقٍ لعمارة تكاد تكون مهجورة، تشاركني السكن عجوز في الستينّ من عمرها احتلت الطابق الأرضي، في حين بقيت الطوابق الثلاث مهجورة، لايسكنها أحد خشية من أن ينالها القصف . . . . .

هذه أمور عامّة أذكّرك بها، ولاأودّ الخوض بتفصيلاتها، فهناك ماهو أهمّ بكثير من مسألة الحديث عن السكن.

إنّه الزمن نفسه . . .

وحياتي السابقة التي جعلتني أنساك كلّ هذه الفترة، وأنسى أصدقاء الطفولة، وأهل حارتي القديمة . . .

وأنا لا أبّريء نفسي من التهمة.النسيان لايسّوغ تجاهلي، إذ من السهل القول «فرض عليّ الزمن إرادته فأنساني . . . » ثمّ أوجد رابطاً بين الحوادث وتجاهلي التاريخ نفسه، ولكي أعلّل خطأي أقول إنّي

كتبت إليك رسائلي كلّها من دون أن أؤرّخها. لقد بدأت أنسى الزمن نفسه منذ أن تحطّم منزلي على البحر، فهربت مع من هربوا من الساحل نحو الحارة القديمة، ودلفت مذعوراً كالجرذ داخل قبو مهجور...

مع ذلك نفض الحادث القويّ الغبار عن ذاكرتي، فبدأت تعود إليّ شيئاً فشيئاً.... وتذكرت أكثر من سبب جعلني أكتب إليك فور هربي مباشرة...

لم أكن مخطئاً حين انتظرت الحوادث نفسها تعينني على تذكّر الأسباب الأخرى لأكتب إليك مرّة ثانية....

عزيزي درويش:

في رسالتي السابقة ذكرت لك أحد الأسباب التي دفعتني إلى الرجوع، وها أنا أكتب إليك سبباً آخر وفق ماتذكّرني به الحوادث.

السيدة والدتك تستطيع أن تنقذني. حين فكّرت بالهرب من الموت رجعت إلى شارع الطفولة، وعندما نجوت ازددت رغبة في الحياة. قلت لنفسي: أمّ صديقي درويش تقبض بيدها على المجهول، وتدرك الزمن قبل أن يداهم الآخرين.

وعلى الرغم من القصف الشديد، وأصوات الانفجارات المذهلة، فكّرت أن أخرج فأزور بيتكم، وستكون من أسعد اللحظات، وسط هذا الجوّ المشحون، تلك اللحظة التي آوى فيها إلى أمّك لتقبض لي على عنق الزمان المجهول مثلما كانت تفعل أيّام الطفولة والصّبا...

لم أصّدق أني نجوت، فهل أستطيع أن أقابل أمّك؟ الشكّ لايتطرّق إلى نفسي. صحيح انّي أحسّ باليأس يتسرّب خلل الجوّ المشحون بالتوتر والقتام إلى عمق سحيق من أعماق روحي، سوى

أنّي أتشبّث بأمل ضعيف، وأعدّ زيارتي لأمّك معجزة تفتح لي أبواب الأمل الجديد. . .

ومن المحتمل أن يكون السبب السابق نابعاً من شعوري بالذنب. كلّ شيء جائزٌ هذه الأيام. إنّ والدتك أقرب النساء إلى أمّي بكلّ شيء، من حيث نمط التفكير، والسلوك والتصرّف، وكم كانت أمّي تحنّ إلى الحارة القديمة، وتتأفّف من حياتها الجديدة معي. كثيراً ما كانت تغادر المنزل إلى الحارة القديمة لتلتقي أمّك، في حين أكون مشغولاً أنا بخصوصيّاتي اليوميّة كالعمل والسّفر، وقبل وفاتها بأيام، قالت لي إنّها لاتريد أن تموت غريبة أي بعيدة عن حارتنا القديمة، لم يكن عندي الوقت الكافي لأصغي إليها. قبلّت يدها، ودعوت لها بطول العمر والصحّة، فالموت كان آخر احتمال يمكن أن أدرج أمّي في فرضيّاته. لِمَ نفكّر بالموت والحياة مليئة بالفرص الزاهية أمامنا، ثمّ أنّي لاأحبّ الحديث عن الموت إطلاقاً ولا أروم أن أشغل ذهني بشيء أكبر من قدراتي.

وعندما ماتت أمّي كنت في الخارج. قيل أنّها شُيِّعَتْ تشييعاً مهيباً. أهل حارتنا أدوا المراسم كاملة، فهل ياتُرى تنبّأت والدتك بموت أمّي وهي في الغربة، فالخالة أمّ درويش كانت الوحيدة من بين النساء التي تستطيع أن تصيب الزمن ولا تخطىء. . وتقبض على المستقبل بأناملها فتفتح طيّاته. . .

هل اقتنعت علام أكتب إليك، واختصك من دون أصدقاء الطفولة برسائلي غير المورّخة؟

عزيزي درويش:

بدأت الذاكـرة تسعفني بتذكّـر آخر الأسبـاب. إنّه يتعلّق بـك ولا يختصّ أحداً غيرك من أصدقاء الطفولة. . .

لقد كانت لك طريقة فريدة في السقوط، تُرى فأين أنت الآن؟ وهل مازلت تذكُر أم نسيت؟

الآن فقط تعود بي الذاكرة إلى أكثر من ثـلاثين سنـة خلت. كنّا نخـوض حرب العصـابـات ونحن أطفـال. ننقسم إلى مجمـوعتـين تتعاركان وتتشاحنان، وقد جرت العادة أن يشتري كـلّ منّا مسـدّساً وأسلحـة أخرى وفق مـاتتحمله إمكانـات جيوبنـا الصغيرة وبمقـدار مايستلمه كلّ طفل من أهله.

وسط هـذا الصخب، والضجيج، يلمـع خـاطـر بـذاكـرتي، فاستعرض أسماءهم من خلال الغبار: حسين، خالد، عبد الجبّار، مهدي، حسن، أنا، وأنت وآخرين أنظر إلى وجـوههم داخل غـابة الخوف ولا أكاد أذكـر أسماءهم، بـل أراهم يتهيأوون بـين الأشجار

وخلف الأرصفة وفي كلّ زاوية . . .

بعضنا يحمل مسدسات يملؤها بالماء لأنّها أرخص ثمناً، ولأنّ نقوده لاتكفي لشراء صنف أغلى، وآخرون يُشهرون مسدسات أو بنادق تصدر فرقعة وصدى . . . .

أمّا أنت يادرويش، فكنت تشهر رشاشاً غالي الثمن أغلى من أن تتصوّره عقولنا الصغيرة . . .

ولم تكن والدتك من اشترى لك الرشاش الجميل بل أهدته إليك إحدى العائلات الثريّة، فبفضل قدرة السيدة والدتك على قراءة الفنجان استعطت أن تحصل على هدايا كثيرة. أمهاتنا كنّ يطلبن عونها طول الوقت وفي عيونهنّ رجاء، وهنّ يتابعن تحديقها الطويل. هذه تسألها عن السرّ في تغيّر زوجها، وتلك تروم منها أن تعرف نتيجة ابنها، وأخرى تتحدّث عن همومها مع كنتّها وو. . . . و. . .

رأيتها أكثر من مرّة وسط حشد النساء تقلّب فناجينهنّ، وتحدّث طويلاً، ثمّ ترفعها لتقرأ المستقبل. قالت لأمي: احذري الغربة، والتفتت إلى الأخريات: امرأة جميلة تجلس لابنك يا أمّ عبد الجبار، ستأخذه منك رسالة قادمة إليك يا أم حسن. أم فلاح انظري هذه الغزالة تقف عند حافة النبع إنّها بنت أختك وهي أحقّ بابنك. أم جميل في فنجانك بوم يندس بين أغصان شجرة، أما أنت يا أمّ حسين فعليك أن تبصمي عند الحافة . . .

وبعد أن قرأت أمّك البصمات، وكشفت الحُجب لأمهاتنا،

طلعت علينا يادرويش برشاشة غالية أهدتها إليك إحدى العائلات، والأطفال لا يهمّهم أن يعرفوا من أين جاء الرشاش بقدر ماكنّا نهتمّ بلعبنا وكيف يؤدّي كلّ منّا دوره بإتقان، وقد لاحظنا حين نخوض حرب الشوارع أنّك تفضّل أن تتسلّق شجرة أو تقف فوق مرتفع، ثمّ توجّه الرشاشة إلى جميع الاتجاهات، تظلّ تطلق النّار علينا ونحن نتساقط، فإذا فاجأك أحد المتسللين وأفلت صرخة حادّة ليقتلك، هويت من أعلى غير مبالٍ بصلابة الأرض...

تلك هي كانت سقطتك.

كنت تجيد تمثيل الموت بدقّة. تظلّ عيناك مفتوحتين من دون أن يرمش لك جفن، وكان مكانك المفضّل الأشجار والمرتفعات... ورشاشك يلفّ جميع الاتجاهات، ماعدا مرّة واحدة خُدِعْت فيها. عبد الجبار نفسه خَدَعك. هل تذكر ساعة رحت تصّوب الرشاش إلينا فتساقطنا كلّنا، عندئذ تقدّمت من الجثث المبسوطة أمامك. تفحّصتها ورحت تجمع المسدسات وأدوات القتال حتّى وقفت عند جثّة عبد الجبار... رأيته يشدّ يده اليمنى على شيء ما وبهدوء انحنيت على كفّه وفتحتها لتسلب مافيها...

فجأة... دوّى انفجارٌ هائل...

سقطتَ وأنت تصرخ صرخة حادّة... ثمّ نهض عبد الجبار وهو يقهقه ويهتف: قتلتك يادرويش وأنا ميت...

كانت في يده المغلقة، فعلاً، قنبلة يدوية. قال: إنّه اشتراها يوم أمس من محلّ الألعاب، وهو أوّل سلاح قتل به صاحبهُ الميت

عدوّه الحيّ . . .

من يومها، وأنت تطلق رشاشك نحونا، ولاتغادر مكانك إطلاقاً، تخاف أن تجرّك قدماك إلى مصيدة جديدة، فاللعبة اليوم ماعادت لعبة طفولة، فربّما قتلك واحدٌ منّا، وربّما قتلتني. لاأحد يدري، غير أنّي مازلت أضحك كلّما تذكرت قصّة القنبلة اليدوية.

تُرى أين أنت الآن؟

وأين عبد الجبّار؟

لعّلكما في خندقين مختلفين . . . .

وربّما قتلته أو قتلك . . .

عزيزي درويش:

اليوم استبشرتُ خيراً.

ماكدت أخطو بضعة أمتار عن وكري حتّى رأيته أمامي. وليس من باب المصادفة أن ألتقي أحد أصدقاء الطفولة مادمت رجعت إلى الحيّ القديم.

كنت أجهل كلّ شيء عن عبد الجبّار سوى شذرات من والدتي رحمها الله يوم أخبرتني أن نبوءة أمّك تحققت فيه، فالفتاة الأرمنية ـ زوجته ـ خطفت عقله بعد سنتين من الزواج وهربت إلى مكان مجهول. وأضافت والدتي بحسرة: غابت اللعينة كالجنيّة، ولأنّ عبدالجبّار أصبح مجنوناً فإنّه لم ينسني إطلاقاً. فتح ذراعيه يحتضنني وهتف: صدق المتنبيّ حيث قال:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحبّ إلاّ للحبيب الأوّل

كم منـزلٍ في الأرض يألفـه الفتى وحـنـيـنـه أبـداً لأوّل مـنـزل

سأغنيك عن تصحيح أقوال عبد الجبّار، فكلّنا ندرك غرامه القديم بالمتنبيّ. أيّ شعر يعجبه ينسبه له بغضّ النظر عن المفارقة التاريخيّة، ولا يهمّه أن يكتب رأيه الصّريح في ورقة الامتحان حتّى وإن أدّى الأمر إلى رسوبه.

هل تذكر يوم جادل معلّم العربيّة حول أبيات لابن الفارض ونسبها للمتنبيّ؟ قال إنّ الذين نسخوا المخطوطات حمير لا يفهمون شيئاً مثل موظّفي الإحصاء وجامعي الضرائب لذلك نسبوا أبياتاً لشاعر غير قائلها، فاختلط الحابل بالنابل. أمّا نحن هنا في لبنان فنعيش حالةً تختلف عن البلاد العربيّة، نمارس الفعل الديمقراطيّ بكامل مواصفاته، فإذا ما أصرّ المعلم على رأيه شكوته للبرلمان.

الفرحة انتشلتني من حالة الذعر. أخيراً وجدت بعضاً من مخلّفات الطفولة. قلت له دعني من المتنبيّ الآن. أخبرني عن شغلك. كنّا نقف على الرصيف نتحدّث والهدوء النسبي يجري من حولنا. ذكّرني أمّي وكيف ساهم بتشييعها وتحاشيت أن أخوض في حديث يفتح جروحه من جديد. كلّ ذلك جرى ونحن واقفان في صميم الزمن المضطرب. راح يضحك لحكاية هروبي ورجوعي إلى الحيّ القديم.

ـ ماذا تشتغل ياعبد الجبار؟

فرفع طرف قميصه فوق سرّته، وأشار إلى جرح طويل.

ـ أبيع الكلى.

فقلت له بدهشة ونفور:

ـ دعني من هذه الشغلة.

فأكد لي بابتسامة: الأوربيّون يشترون الكلى، الكلية الواحدة بألفي دولار. إنّك تربح الدنيا والآخرة، تحصل على المال، وتنقذ حياة مريض.

ـ هل عندك غير هذا العرض؟

ـ المشفى الأمريكي يدفع خمسين ليرة للتر الدم.

هزّزت رأسي بالنفي، فقال كمن يتذكّر خبراً نسيه:

سآتيك بعروض آخرى إن شاء الله، فهلاّ دللتني على وكرك؟

أشرت إلى مدخل القبو وقلت:

ـ إنّه على بعد خطوات فأنا لم أرَ سواك لحدّ الآن.

قدته إلى القبو المعتم، وكان الهدوء النسبيّ قد انحسر مع انتصاف النهار، فبدأت الضجّة تعلو، وانشغل ذهني لحظات بالأثاث البسيط، حصيرة، وتختٌ حقير للنوم، برّاد شاي. هذا هو كلّ شيء. هربت من الحاضر إلى الماضي القريب، واستعنت بصديقي على الغوص في الماضي الذي كان بعيداً عنه:

ـ تركت القصر، والأثاث الفخم في الفنار يحترق وعدت إلى هنا..

هزّ رأسه، ونسب أحوالنا إلى تقلّب الدول:

ـ نحن ضيوف في هذه الدنيا..

ومع سكوته، ارتخى على الحصير، ولصق ظهره بالحائط:

ـ سأرتاح قليلاً ثمّ أذهب..

ـ لستَ مضطراً الآن فحدّة القصف تزداد...

ضحك، وقرأ شعراً للمتنبي، كان يحدّثني عن المطر، أيام الطفولة والمراهقة، أيّام زمانٍ نلعب تحت المطر، ونُحِبّ المشي حين يتساقط الرذاذ، وصوته يرنّ في أذني وهو يقهقه:

ـ لن يخفّ القصف ياصديقي بعد اليوم.

شعرت بصدري ينقبض لأمر ما غير مفهوم... فقلت:

ـ وأمّ درويش كيف أزورها.

ـ لاتقلق ستزورها في يوم ما...

ـ أما زالت في بيتها القديم؟

ـ اطمئن لم تذهب إلى القبر بعد، لكنّها قد تعرفك أوْ لا.

كيف أفهم ياعزيزي درويش صديقنا المعتوه عبد الجبار. تلك الحرب الشرسة أبت إلا أن تلقيه في طريقي من دون كلّ أصدقاء الطفولة، وعليّ أن أقبل به مثلما كان فالجنيّة الهاربة سرقت عقله، حتّى ظنّ القذائف المتناثرة مطراً يسير تحته، وها هو يشغلني بالثرثرة عن الخارج، فأستطيع أن ألتقط أنفاسي بأمان. لقد شغلني عن زيارة السيدة والدتك أيضاً، فقلت مع نفسي إنّي لايمكن أن أفهم منه شيئاً، ولايمكن أن أعتمد عليه في الذهاب إلى بيتكم، فصممت على أن أزور والدتك وحدي حالما تخفّ حدّة القصف في أيّ وقت كان.

عزيزي درويش:

القصف اشتدّ وليس معي طعام. كانت القذائف تهمي كالمطر، وكنت قابعاً كالجرذ في القبو أسامر الرطوبة ولفحة البرد. قرصني الجوع، فرفعت قامتي إلى الطابق الأرضي. سألت جارتي ساكنة الشقّة فلم أجد عندها غير الشاي. إنّه ينفع للبرد ويسدّ بعض الجوع. اضطجعت على الحصير ورحت أشرب كأس الشاي الساخن وأنا أحدّق بالعتمة الشاحبة.

لا بأس. غداً يتعب المحاربون فيتوقّف القصف، لكنْ متى يتعب المحاربون؟ وفي اللحظات العصيبة أتذكّر دائماً والدتك كم أرغب في أن أقابلها لتقرأ لي المستقبل، ويطلع علينا، رغم الزمن، عبد الجبار بجملة جديدة يجادل بها معلّم العربيّة هذه المرّة: أنا أنسى إذن أنا موجود! يقول إنّها حكمة للمتنبي من كتاب له في النثر ضاع، وهذا القصف الشديد يادرويش يكاد يثقب رأسي ويلقي بجثّتي للكلاب، فأين منّي عبد الجبار ومتنبيّه الذي قتله خيلاؤه، وأنا أحبّه على مافيه من جنون ولا أتردّد بأنْ أواجهه بحقيقة جنونه، لأنّي

لايمكن أن أنكر قولاً استلته والدتك من الفنجان وجلبته عبر الزمن الطويل. كنت أهزأ بها وبالنبوءة، ثمّ شككت ومن الشكّ وصلت إلى اليقين إذ رأيت نبوآتها كلّها أصبحت حقائق. قالت: أنتم الآن تقتلون بعضكم بمسدسات الماء وأخشى أن تفعلوها يوماً ما وأنتم كبار. وقالت: أنتم جيل الضياع سوف ترفضوننا وتجرون وراء حياة تظنونها أفضل منّا فتفقدون الاثنين، وقالت لعبد الجبار سوف تسرق عقلك الجنيّة الغربية، فأقول له ولا أنكر كلام الخالة أم درويش:

ـ أنت مجنون.

ـ قل لي ومن هو العاقل؟

ـ أنا لم أقل ذلك بل الخالة أم درويش.

ـ لكنّك تتناسى كمن يقرأ «لاتقربوا الصلاة» أنسيت قول الخالة ياعبد الجبار أنت مجنون غير خطر.

ـ خطر أو غير خطر المهّم أنّك مجنون.

يردّ علي: خيرٌ من عاقل خطر.

لست أظنّ الدليل يعجزه، وإن كنت أشعر به أهانني عن غير عمد، كان يحاول أن يثبت كروية الأرض، من خلال بيت المتنبيّ المشهور.

هل غادر الشعراء من متردّم أم هل عرفت الدار بعد توهّم

والدليل على كرويّة الأرض أنّا التقينا تحت حكمة المتنبيّ المتفرّعة من بيته السابق: to be or not to be

ومن بين كلمات كثيرة ثرثر بها التقطت الإهانة الموجهة إليّ فشعرت بمرارة. في حيّنا القديم هنا التقينا على الرغم من أنّك نسيتنا خلال خمسة وعشرين سنة. لاتكن مثله يادرويش فتلومني على نسياني الحارة أيام غناي. مهما يكن فأنا مثل أبي آدم. لايميّزني عنه أيّ شيء. نسي وصيّة الربّ وذاق تفّاحة العذاب، ثمّ نسي الجنّة وانشغل بالأرض، ولم يذكرها إلاّ وقت الشدّة، ساعةَ واجه الموت، ثمّ إنّي لا أريد أن أكذّب قول أمّك.. حذرتني الغربة، فتركت الحيّ. كنت أتصوّر الغربة رحيلاً، فإذا هي أقرب إليّ في حارتي منها وأنا بعيد عنها. أمّا هذا المعتوه صديقي الثرثار فهو يريد أن يثبت سلامة عقله وجنوني، إنّه يستطيع أن يبرهن على كلّ شيء وفق إرادته وأن يوجد علاقة بين كرويه الأرض ولقائي به، فهو يستطيع أن يخرج تحت وابل القصف المدفعي ليجلب الطعام والشراب من دون أن يموت، لكنني أموت إن فعلتها، فهل أراهن؟

مع ذلك فلم يخامرني حقد... انفجرتُ ضاحكاً استجيب لنكاته، وعدنا نعوم بالماضي السحيق، وكلّما توغلت أكثر شعرتُ بالجوع. معدتي خاوية منذ الأمس، وقرقرة بطني لاتتوقّف.

ـ عبد الجبّار هل تستطيع حقّاً أن تجلب طعاماً؟

هزّ رأسه صامتاً وحامت حول شفتيه ابتسامة أقرب إلى البكاء. عجزت عن تفسير صمته. كان بعيداً جدّاً عنّي. لعلّه يفكّر بالمتنبيّ شأنّه في كل صمت. بقي لحظات ينود برأسه ثمّ انسلّ من هوة في الجدار إلى الشارع...

وأقول لك بصراحة إنّ خوفاً رهيباً اعتراني عندما رأيته يغادر القبو، أشكّ في أنّك دعوته أو تعمّد الذهاب إليك، ومع كلّ الاحتمالات التي جلبها الخوف والعزلة فإنّي غفرت لك وله ولي. . .

عزيزي درويش :

رجع إليّ عبد الجبار. لم أغادر الجحر طبعاً، فما زال القطّ خارج الفتحة. اسمح لي أن أتحدّث إليك بصراحة فأقول إنّي قسوت على نفسي لأنّ الجوع اشتدّ بي فلمت نفسي في رسائل سابقة وجهتها إليك.

في تلك الرسائل إدّعيت أن الغراب أضاع مشيته إذ حاول تقليد الحمامة، ثمّ انتبهتُ إلى أنّ جلدي موجود لم أكن لأسلخه قطّ غير أنّ ظروفي جعلتني ابتعد عنكم فأنساكم.

صحيح أنّ البركان القويّ ذكرني بكم، ولولاه لما عدت، وقد خطر لحظة المحنة بذهني الماء نفسه. إنّه يتبخّر، يرتفع فيثقله الارتفاع عشقاً ليعود إلى قمة الجبل ماءً من جديد، وعندما عدت إليكم مثل الماء بالضبط أخفقت في العثور على أيّ أحد منكم ماعدا عبد الجبّار المعتوه. هذه المرّة ليس الذنب ذنبي . .

أفتلك هي طفولتي يادرويش؟

قبل قليل عاد صديقي عبد الجبار. كان يتأبّط لفّة جهلت

مافيها وفي جيبه العميق لمحت قنينة عرق يبرز رأسها. عرقٌ لبناني.
لوّح بها إليّ ثمّ رماها على الفراش:

ـ أنا جائع فكيف أشرب؟

ـ بليلة واحدة لا أقدر أن أغامر حول أكثر من هدف.

ـ هل تشرب معي...

فأشار إلى كليته، وعقبت:

ـ لو كنت مجنوناً لشربت دون أن تبالي بكليتك الوحيدة.

فأطلق ضحكة رنّانة:

ـ ها أنت تعترف بصحّة عقلي.

وراح يقرأ شعر المتنبيّ المزعوم:

دع عنك لومي فإنّ اللوم إغراء
وداوني بالتي كانت هي الداءُ

أنا جائع لاشيء يدخل معدتي غير أقداح من الشاي عطفت بها عليّ جارتي العجوز ساكنة الطابق الأرضي، وصاحبي يفكّر بالشعر وينسى القصف العشوائي، وإذ يخرج تتناثر حوله شظايا القذائف فلا تصيبه بضرر لأنّه يكون مشغولاً بالمتنبي، فيخطف قنينة عرق من مكان ويمدّ يده إليّ:

ـ أشرب...

فأشفق عليه. بالحقيقة لاأريد أن أخسره فهو الوحيد الذي

يخفف عنّي وقع المأساة، ثمّ أنّي لم ألتقِ أيّاً من أصدقاء طفولتي بعد، فأقول:

ـ ألا تخشى الموت ياعبد الجبار.

ـ لن أموت حتّى تنتهي الحرب.

ـ ومتى.

قهقه

ـ حين تصحو...

ـ أنا صاح

ـ لوكنت صاحياً لما جلبت إليك العرق. أكرع لتصحو..

إذا شربت احتجت إلى الطعام، وصاحبي يثرثر بكلمات غير مفهومة. يثرثر كثيراً، ويطلب منّي أن أسكر لأصحو، فمن أين آتي بالطعام. أجوع، وأتضوّر. أخشى إذا خرجت إلى الشارع الموت. فأفضّل أن أظلّ جائعاً، والمعتوه عبد الجبار عاد بقنينة عرق!!

إنّ الذي يجلب العرق لقادر ياعزيزي درويش على أن يجلب طعاماً، ولكي تعرف إنّي حاولت جهدي منعه من الثرثرة فقد جرعت قنينة العرق دفعة واحدة، غير مبال بحرارتها وقوّتها. بلعتها بكلّ أحساسي...

وعندما شعرت بعد دقائق بالخدر، وقرصتني بطني، غرز الجوع مخالبه في معدتي أكثر وأكثر. ذقت طعمه للمرّة الأولى في الكيلومترات السبعة.. عندئذ قهقه المعتوه زوج الجنّيّة وفرش اللفّة المجهولة تحت إبطه...

ـ كلّ . . .

كانت تلوح لي كالواحة المبسوطة داخل صحراء مترامية الأطراف . رأيتها غير بعيدة عنّي . خبزٌ، جبنٌ، زيتون، وقليل من الملح . . اتسعت حدقتاي دهشة، وخمّن مافي نفسي .

ـ أردتك أن تشرب أوّلاً . . .

وما يضرّك أنت؟

يقهقه قبل أن يردّ :

ـ حتّى إذا سكرت تصوّرت نفسك مجنوناً وتصورتني عاقلاً مثلما أرى نفسي .

ثمّ استرسل في هذيانه . قرأ شعراً للمتنبيّ يعود تاريخه إلى ماقبل الإسلام . المجانين صاحون، والعقلاء سكارى، بين الأثنين خيطٌ رفيع نجهل من قاله، هو الشعر، أمّا خارج القبوّ فيضمّ الشارعُ رذاذ الموت وهدير الرعب . «مات حين كان يمرّ من هنا»، وعبد الجبار لايخاف الموت لأنّه يمّر بكلّ الأمكنة، ويظلّ يثرثر وهو يمشي تحت القصف، أو يجلس معي، فأسقط أثناء رحلة الخيال مرهقاً، ولا أصحو إلاّ في اليوم التالي . . .

عرفت حين صحوت أنّي أكلت خبزاً وزيتوناً جلبه لي صاحبي المعتوه، وأدركت جيداً أنّه بصفته الحاليّة ـ أي الجنون ـ يقدر على أن يؤدّي أعمالاً عظيمة لا أستطيع أنا العاقل أن أفعلها، واعترف بصراحة أنّي لم أعثر عليه صباح اليوم التالي بل وجدت فقط قصاصة ورق مكتوب عليها الآتي :

سـآتيـك ومعي ورقـة فيهـا اقـتراحـات كثـيرة، فـلا تغـادر الجحر. . . أعرف أنّك لن توافق، غير أنّي مجنون، سوف آتيك كـلّ يوم باقتراح جديد أعرف مقدّماً ماذا تقول عنه. . .

عزيزي درويش :

كنت أهمّ بالخروج من القبو البارد المظلم ، فالقصف توقّف ، ولست متكاسلاً أو مقتنعاً بما جلبه لي عبد الجبار المعتوه . غير أني قابلته وجهاً لوجه لحظة هممت بالخروج لأزور السيدة والدتك . كان يحمل كميّة جديدة من العرق وورقة عريضة طويلة راح يلوّح لي بها ويهتف ضاحكاً وجدتها ياصديق درويش ياصديق الطفولة العزيزة .

في البدء حدّثني عن محاسن الورقة . قال لن أخبرك عن مساوئها فأنت تستطيع اكتشافها بنفسك ، أمّا هذه الورقة فتمثّل تفّاحة نيوتن ، وجنّة آدم الضائعة ، واختلاف الائتلاف ، ويلخّصها بيت الشعر المشهور .

ملأنا البرّ حتّى ضاق عنا وماء البحر نملؤه سفينا

لم أعترض عليه شأني كلّما انزعجت من إسهاباته . قلت له أرشدني إلى الحلّ الصحيح مادام القصف متردداً فكان يردّ عليّ بأنيّ سوف أنكر النعمة وأسمّى جاحداً إن رفضت .

أنصتّ إليه ، حين راح يقرأ بلهجة أقرب إلى الرزانة والتعقّل :

المنظمات الفلسطينيّة: فتح ١٠٠٠ ليرة. الشعبيّة والدمقراطيّة والنضال كلّ منها تدفع ألفي ليرة.

المنظمات اللبنانيّة:

الحزب الشيوعي ١٥٠٠ .

القومي السوري ٢٠٠٠ .

المرابطون ١٧٠٠ .

أمل ١١٠٠ .

وفي النهاية توقّف عن القراءة والتفت إليّ. راعه ذهولي وجمودي، فعرض عليّ أن أكتب اسم كلّ منظمة على ورقة صغيرة وأضع الأوراق جميعها داخل كيس ثمّ أدسّ يدي، فأستلّ ورقة تحمل اسماً ما، فعبر القرعة أثبت إخلاصي لأنيّ سوف لن أكون مهتماً بالراتب، فانتمائي إلى منظمة ما عبر هذه الوسيلة يصبح قدري مثل أيّ شيء ورثناه عن أبوينا ولا حيلة لنا فيه كالانتماء الديني والمذهبي أو لون البشرة والشعر. القرعة طريقة نبيلة تبعد الشبهات عنّي، وعبرها أثبت إخلاصي لأنيّ سوف لن أكون مهتماً بالراتب.

كان يحدّثني بانفعال عن المنظمات فينسب نفسه لها كلّها، هو شيعي من أمل وقومي مرابطي، وشيوعي، شيء من كلّ شيء حتّى حواجز الكتائب لاتضع عليه أيّة علامة استفهام، ربّما يبالغ في نعته لنفسه ليثبت أنّه يرفض الموت أمّا المسألة فتختلف معي. الموت هو هو سواء كنت تخدمه براتب مقداره ألف ليرة أم ألفان:

ـ كرعت جرعة كبيرة من العرق، ونظرت إليه نظرات غريبة.

المنظمات أمامك، والحياة مليئة بالموت والبقاء، فلِمَ تفكّر بالموت وحده. كأنّه يحتجّ عليّ بنظراته المجنونة. كان يقرأ حبّ الحياة بعينيّ، والحياة كما يفهمها المجانين لاتأتي إلّا عبر الموت.

مسحتُ شفتيّ بظهر كفيّ، وقاطعته:

ـ كم تأخذ شهرياً ياعبد الجبار؟

ـ لو أخذت شيئاً لما بعتُ كليتي.

فقلت متعجباً: لكنّ المنظمات كثيرة.

فردّ علي سؤالي البليد كما يظنّ:

ـ ليست كثيرة ياصديق درويش أتذكّر قول معلّم العربيّة إنّ عندنا مائة اسم للسيف، وعدد المنظمات لم يصل إلى عدد السيف بعد.

في تلك اللحظة انفجرت ضاحكاً ياصاحبي درويش. فاجاته صرختي الهستيرية وضحكتي العالية. كنت قد خدرت تماماً فجهلت القصف. غاب عن أذنيّ الضجيج والصخب، وتخيّلت مائة سيف تلثم رقبتي فلا تقطعها لا أدري كيف تذكرت فجأة أسماء الله الحسنى أسماء السيف ذكّرتني بها، فرفضت الحرب، ورفضت الموت، فاندفعت كأنّي أهزّه:

ـ لله تعالى تسعة وتسعون اسماً ونحن وضعنا للسيف مائة اسم

فطق مفصل رجله، وهو يمدّها على الحصير، وقال:

ـ الله اختار لنفسه تسعة وتسعين اسماً ونحن اخترنا للسيف مائة اسم. اسماؤه مشكلته هو، ولا علاقة لنا نحن بها، وقد خلقنا

أحراراً فاخترنا للسيف مائة اسم، ولحدّ الآن كما أعلم لم يتدخّل الله في شؤوننا فلِمَ نحاول أن نزجّ به في شؤوننا الكبيرة والصغيرة.

ـ لو كان درويش معنا لسخر منك. نعم عندنا مائة اسم للسيف وقد عشنا منهزمين طول حياتنا...

فقاطعني وهو ينصت لشيء ما لعلّه انفجار في الخارج:

ـ بالعكس ياصديقي، أنت لاتفهم درويش أحسن منّي. لقد انقطعت صلتك بنا خمسة وعشرين عاماً، فكيف تفهم درويش.

ـ على ايّة حال أليس هناك من وسيلة أخرى؟

ـ غير الموت والحياة؟

ـ أرجوك لاتظنّ أنّي جبان لكنّي لا أحبّ أن أموت هدراً.

ـ ماذا عن التبرّع بالدم مقابل أجر.

ففكرت مليّاً وسألته:

ـ كم هو سعر اللتر؟

ـ مائة ليرة أنّه مبلغ يكفيك فترة من الزمن.

ـ إنّي أوافق.

حسناً حين ينتهي الجبن والزيتون تذهب معي إلى المشفى الأمريكي وعلى وقع انفجار ضخم سمعه هو، وغاب عن أذنيّ أنا لأنني كنت في أوج نشوتي، نهضت وأخذت يده، رحت أراقصه وأنا أترنحّ، ونحن نغني:

غداً أو بعد غدٍ

حين ينتهي الخبز والزيتون
أغادر القبو المعتم
فأبيع لتراً من الدم إلى المشفى الأمريكي . .
فأحصل على الخبز والزيتون!!

هل أعجبتك الأغنية ياعزيزي درويش؟

عزيزي درويش :

لماذا أكتب عن الأشياء الكبيرة كالقصف والقتل، ولا أذكر الأمور التافهة إنّ الإنسان العظيم يخلق من الأحداث الصغيرة شواهد عظيمة، ومن القبح جمالاً . . . صحيح أنّي سكران ومعي كميّة كبيرة من العرق والخبز والزيتون حيث صعدت إلى الطابق الأرضي فأعطيت جارتي العجوز بعضاً ممّا عندي وتلذذت بكأس شاي . ثمّ طرق بابي عبد الجبار وهذر كثيراً . لم يسألني ثانية عن المنظمات قرأ لي شعراً من دون أن يصرّح باسم المتنبي . كان يتابع بلا مبالاة أصوات القصف حيث سقطت قذيفة قرب المبنى، فارتجّت العمارة، وسمعنا زعقة غامضة، فهتف : ياأولاد العاهرة أما لآن لعزرائيل أن يترجّل، ودندن مع نفسه :

ولما أرهب الأعداء سيفي تحاشوه فطاردهم لساني

الشعر أعجبني، وهو ينسب كلّ الأبيات للمتنبيّ، فكيف أعرف اسم قائل البيت الأصلي . أردت أن استدرجه :

ـ إنّه أعظم بيت قاله المتنبيّ .

فأجاب وهو يرقص طرباً :
ياحمار هذا البيت أنا قائله .

وفي هـذه المرّة غفـرت له إهـانته لأنّـه جلب لـترين كـاملين من العـرق، كان يـردد حين وضعهـما جنبي : اللبنـاني الشريف هـو من يعـرف موقعـه . أنا وأنت عـرفنا مـوقعنا إذن نحن شريفـان، وقطع حديثه ليقرأ شعراً وعقله منصرف إلى تـرتيب الخبز والجبن والـزيتون الـذي جلبه مـع العرق وكـرّر قـولـه : حـين ينتهي العـرق والأكـل أصحبـك إلى المشفى الأمركي فتحصـل على مـائة لـيرة . إنّ ثرثـرته الكثيرة سببت لي إسهالاً ، مع ذلك أشعر بالأمان لوجوده .

وعنـدما نهضت وجـدت المرحـاض فائضـاً . ليس في القبو من ماء . التمست طريقي وسط العتمـة وأنا أتـرنحّ . صحتُ : كيف يـا عبد الجّبار دبّر صديقك القديم فاض المرحاض . فقهقه وأجـاب : لِمَ تثير ضجّة الإنسان نفسه مـرحاض متنقـلّ ياإلهي مجنـون وسكران، فكيف يتفـاهمـان . ضـاع منّي حسـاب الـزمن والاتجـاه، لا أعـرف الشرق من المغرب، ولا أميّز الشمال عن الجنوب . عاجزٌ تماماً عن أن أدبر أمر المـرحاض وأتخلص من الخـراء، فكيف أقدر عـلى طرد قـوّة كبيرة مثل أمريكا وفرنسا . فكرة مجنونة خطرت بذهني، فتردّدت عن طـرحها أمـام المعتوه . أحجمت تمـامـاً وركنت إلى اليـأس . أعـظم اكتشاف جلبه لي عبد الجبار هو العرق، لا أريـد أن أعيش وحيداً في القبـو، فلأضغط عـلى أعصابي وأتحمّـل صـاحبي بكـلّ مسـاوئـه، فحسناته أكثر من شطحاته :

كنتُ أتأوّه من الألم، حين عبر صوته مدخل القبو:

ـ هل ضللت طريقك أيّها البرجوازيّ القذر؟ تعال معي.

ترنحّت خلفه، ثمّ صعدنا الدرج إلى الطابق الأرضي فعبرنا الدرجات إلى الطابق الثالث، فأخرس القصف أنفاسنا. تبيّنته واضحاً غزيراً أغزر من شعرات رأسي. لاشيء أيّها البرجوازي غير هذا القطّ الميت بباب الشقّة الخاوية لعلّنا نجد بعض الماء.

لم يبق إلاّ الطابق الأخير، وقد تسقط قذيفة فوق رؤوسنا، مع ذلك لم نجد. اقترح عليّ المعتوه أن أطرد مابجسدي في الطابق الثالث، ثمّ أرجع إلى القبو. . . ففعلتها على مضض. . . . تخطيت جثّة القطّ إلى الغرفة المهجورة. كانت خالية من أيّ أثاث سوى كرسي قديم، وخزانة ملابس يعلوها الغبار، أمّا عبد الجبار فأدار وجهه وواصل قهقهته. .

ـ لو سقطت قربك قذيفة لرثيناك غداً ونحن نكتب على الجدران: مات وهو يؤدّي واجبه. أمّا أنا فسوف أخط بيت المتنبيّ تحت اسمك:

. وانا سوف تدركنا المنايا مقدّرة لنا ومقدّرينا

هذه الليلة لم يغادر القبو. تمدّد على الحصير وغفا.

وحين استفقت لم أجده. . فقد ترك القبو مبكّراً كأنّه كان في سباق مع القصف.

عزيزي درويش:

اليوم ازدادت حدّة القصف. شيء غير معقول. كتل النيران تدكّ البنايات والأرض دكّاً. أحسبُ أنّ الأطراف كلّها غلى بعزائمها سُعار مجنون فزّجت بما تملك من قوّة في ساحة المعركة. هكذا خيّل إليّ، ولا مجال أمامي إلّا أن أكرع العرق فيحرق جسدي. أثقلُ، ويزداد إحساسي بالأمان والخوف، غير أنّي بدأت أحسّ بالوحدة. القصف في الشارع يبتلع المدينة، والأصوات حادّة تكاد تخنق أنفاسي، فأين أنت ياعبد الجبار ياصديقي وصديق درويش. تعال وثرثر عن المتنبيّ. الوحدة تقتلني كما يقتل القصف مشاة الطريق، وقد أتيت على نصف لتر الآن وتذكرت حكمتك الشهيرة: اللبناني الشريف هو الذي يعرف موقعه أمّا أنا فعرفتُ موقعي حسب اعترافك. من فمك أدنيك ياصديقي العزيز، المهمّ أن تأتي بأيّة وسيلة كانت لنتسامر، فأنا لايهمّني أن احترقت بيروت أو بغداد أو القاهرة. بالأمس احترقت روما وبرلين. كلّ العواصم سواء، المهمّ أن أجد العرق والأكل وانصت إلى ثرثرة المعتوه، فكلّما جاء أطلعني

على اقتراح جديد. الحمراء لاتتعرّض لقصف، لماذا لاتذهب إليها ياصديق درويش؟ التجار الأغنياء والملّاك دفعوا لأصحاب المنظمات لكي لا يقصفوهم فأين أنا من الحمراء، وقد فقدتُ نقودي، وأين أنا من.. لا أملك شيئاً يجعلني أرحل إلى الحمراء. إنّه الفقر ياصديقي العزيز، وهذا المعتوه يزيدني حيرة حين يقهقه ويدّعي صداقته لجميع المنظمات. يستطيع التجوّل فلا تمنعه الحواجز، ويمضي يقرأ شعراً يظنّه للمتنبيّ. مهما يكن فأنا بحاجة إليه. العرق وهو شيئان ضروريان يفتحان نافذة للصحو في هذا الجوّ الغائم. يجعلاني أتفادى الحرب، وأنساها تماماً. الحرب ياأخي إنّها الحرب. وأنت رائع ياعبد الجبّار. حملت لي معك عرقاً كثيراً وثرثرت، فلن أبالي بالسماء الغاضبة، لكنّي أخاف الوحدة، وأخشى أن أصحو. لقد طرأت فكرة جديدة برأسي، إذا جاء عبد الجبار ثانية، ألقيت القبض عليه ومنعته من الخروج لكي يبقى يثرثر. لايهمّني الزمان والمكان، ولا أحسّ بالقصف لأنني خدر، لا أقدر فقط على الصمت والسكون، ثمّ اكتشفت بعد دقائق عقم تفكيري. تُرى لو منعته من الخروج فمن يجلب علي عرقاً وطعاماً أو من يصحبني إلى المشفى الأمريكي؟.

وفكرتُ بأن أهرب من وحدتي إلى جارتي العجوز ساكنة الطابق الأرضيّ. تمايلتُ، وترنّحت إلى الأعلى، فعبرت القبو، وصعدت السلّم كنت أواجه باب الشقّة. طرقت الباب، لكنّي عجزت عن التقاط أيّ صوت عدا ماكان يرنّ في أذني من ضجيج الراجمات

وقذائف المدفعيّة. لعلّها نائمة. السكران، ياجارتي العجوز، لايبالي بالأحداث الثانويّة. لن يضرّك أن اقتطع من نومك اللذيذ بضع دقائق. لستُ خائفاً من القصف بقدر خوفي من الوحدة والصمت. طرقت الباب ثانية، وانتظرت برهة أخرى أطبق الصمت من جديد على محاولتي مثلما يطبق الصخب في الخارج على الشوارع، لكنّي تجرأت أخيراً فركلت الباب بهدوء... ثمّ دخلت.

عزيزي درويش؟

أهو الرعب أم الخوف؟

أهو شيء آخر أراه؟

وهل أنا نائم أم صاح؟

لاتسألني، ياصديقي العزيز عن الساعة. قلتُ لكَ منذ البداية أنّ حساب الزمن ضاع منّي، ومن الأفضل أن أضيّع حساب الزمن على أن أضيّع كياني، فالمشهد الشاخص أمامي نفسه يجعلني أزداد غلوّا في نسياني الزمن وليس السكر وحده، وفي الدقائق المتناثرة كالقذائف المحمومة، وجدتُ نفسي أقف عند باب غرفة ضيقة فتقع نظراتي على العجوز مكوّمة فوق كنبة قديمة. رجلاها تلامسان الأرض، ورأسها يميل باتجاه المسند، أمّا يداها فمضمومتان إلى صدرها... وكان إلى جانبها كأس شاي نصف فارغ.

اقتربت منها، وهززتها برفق، فنطّت عيناها بوجهي.. وانهار جسدها في أقلّ من ثانية إلى الأرض.. هل ماتت من الرعب ياترى؟ كنت خائفاً كأنّ الجثّة صرخت بوجهي أن أدعها وشأنها، إلى

أن يأتي عبد الجبار فأحدّثه عنها. غداً أو بعد غدٍ تفوح عفونة كريهة فتعجز المدافع والراجحات عن سترّ الرائحة. كيف أتصرّف وهو لمّا يأتِ بعد؟ أهرب!! قال صوت بتصميم، وهتف آخر مرتجف: عُدْ إلى القبو، فترنحتُ إلى الممرّ دون أن التفت. هبطت الدرج، ودخلت القبو. وقفت ألهث قرب قنينة العرق... أين أنت ياعبد الجبار؟ ألم يبعثك درويش بعد؟ عبد الجبار يجتاز الحواجز، هو الوحيد الذي يمّر بكلّ الأطراف فلا يُختَطف أو يُقتل، فَلِمَ لم يجدْك، ويخبرْك عنّي... ثمّ كيف أقدر أن أتحمّل الصمت الثقيل إلى أن يأتي..

هو الآن غائب، ولاشيء يدلّ عليه إلّا اثرى... الموت فوقي يربض، وغداً تفوح من الجثّة رائحة تعجز عن أن تخفيها ضجةً محمومة في الخارج، فهل من سبيل أمامي غير الهرب، فأرفع قنينة العرق وأعبّها دفعة واحدة لأهدأ بعدها وأنام...

عزيزي درويش:

استفقت منتصف اليوم التالي، فتذكرتُ حلماً رهيباً مررت به البارحة أو قبل يوم. حلمتُ أنّي كنت أسير في طريق معبّد بالخشب الأسود، ثمّ انتبهتُ إلى حقيقة واحدة لاتتغيّر: الألوان جميعها تبخّرت وانصهرت بلونين هما الأبيض والأسود. خشب الطريق أسود، كذلك كانت الأرصفة، المنازل، أسلاك الكهرباء، البيوت، الشبابيك، وكان على الرصيف الأيمن والأيسر صفّان من أشجار الأرز البيضاء. أقسم أنّي رأيتها بيضاء كالثلج لونها كلون الحليب الصافي.

سرت منتصف الطريق بغير هدف... أنتم تعرفونني منذ الطفولة أحبّ الأمور الوسطى، حتّى مستواي العام في المدرسة كان وسطاً. الآن تريدون منّي أن أحدّد موقفاً. ربّما تكون أنت بعثت عبد الجبّار ليحمل لي تلك القائمة الطويلة العريضة. لاأستطيع أن أناقشه لأنّه مجنون، ونسيتُ أنّه ليس هو وحده المجنون في هذه البلاد، لكنّي أستطيع أن أناقشك أنت لأنّك مجهول المكان. أعرف

جيداً أنّها مجرّد أسماء، فلا يُشترط بي أن أؤمن بالله لكي انضمّ إلى حزب ديني فأنقذ نفسي من الجوع وأحلّ مشكلة السكن بعدما فقدت مالي وبيتي. الحقيقة أنا أؤمن بالله ولعلّي حين أسكر فقط أظنّه لايؤمن بي، تلك هي مشكلته وليست مشكلتي. أعرف جيداً أنّي استطيع أن أنضمّ إلى المنظمات الماركسيّة من دون أن أكون بحاجة إلى الإيمان بكارل ماركس، وأدرك جيداً أنّي يمكن أن أصبح عضواً ممتازاً في «. . .» أو «. . .» بغض النظر عمّا إذا آمنت بفلان أو علّان، وبإمكاني أن أدقّ باب فلانٍ لكي أكون ناصريّاً من غير ناصر، أو حتّى كتائبيّاً ولا حاجة لي أن أتابع مقالات الجميّل. أعرف كلّ ذلك وأعيه، وقد عرفت أمّك من قبل فهي الشخص الوحيد الذي استطاع قراءتي ذات يوم، يوم كنّا أطفالاً. كم هي عظيمة تلك المرأة. إنّها أرّختني،أمّك الأميّة تورّخني أنا الذي درست الانكليزيّة والفرنسيّة، وأنا الآن اخترق بذكرياتي معها الحلم والواقع، ولم أستطع أن أخترق واقعي وأحلامي بلغاتي تلك. لذلك رفضت كلّ شيء، وللسبب نفسه فقد وجدت نفسي أسير داخل حلمي الأبيض والأسود وفي متصف الطريق أيضاً كما عهدتني من قبل. أمشي من غير هدف. كلّ شيء ساكن وميت حولي. البيوت خاوية. الأشجار جاثمة كالكفن، أمّا رجلاي فظلّتا تحثّاني على السير.

سرت، وسرت.

وما صدّقت نفسي حين رأيتك.

عـرفتك للوهلة الأولى، عـلى الرغم من أنّـك لم تكن مجتمعـاً. رأيتك متفرّقـاً. رأسك أمـامي معلّق بالهـواء كأنّـه أحد العجـائب. رجلاك متناثـرتان، يـداك مندّستـان بين أوراق الأشجـار البيضاء، ورقبتك في مكان آخر.

وحـين شخص رأسـك أمـامي. عـرفتـك فجمعت نفسـك. التحمت أطرافك، بلمح البصر، فزعقت بـوجهي، وكسرت حدّة السكون.

فجأة...

انتبه الصمت لصرختك. فـاختفيت كما شَخَصت، فـاقتلعتني الضجـة من مخالبهـا. بدأ الخشب يحـترق تحت رجليّ... يسخن، ويغلي، والأشجار تتهاوى فيذوب البياض بالسّواد.

فركضتُ، وصرخت...

أمّا الطريق فقد أبى ألاّ ينتهي...

وحين استفقت من الحلم الطائش، عرفت أنّ القصف احتدّ. الراجمات ازداد نعيبها، وقذائف المدفعيّة تكاثفت فأصبحت أكثر من شعـر رأسي، وتـذكّـرت أنّ فـوقي جثّـة، سـوف تتعفّن بمـرور الأيّام....

عبد الجبار صديقي وصديقك مازال غائباً...

والأولى بي أن أهـرب إلى العرق. كـرعت جرعـات عميقة من القنينة الكبيرة، والتهمت الخبز والزيتون مع الجبن... حيث عدت إلى خدري من جديد.

عزيزي درويش :

حين صحوت ثانية وقعت ذاكرتي على حلم عجيب. فابتسمت كنت رأيت نفسي في الشارع ذاته، وهو ليس من خشب كما بدا في الحلم السابق، أمّا الألوان فظهرت ساطعة هذه المرّة، وتحرّكت الأرصفة، والشوارع بينما استقرّت قدماي فلم أستطع السير. وقفت أشبه بالمشلول، ولأنّي في هذا الحلم أكثر تفاؤلاً، أقول: أصبحت مركز العالم. أدور حول نفسي فقط والدنيا تدور حولي.

كان العالم هدفاً لي من قبل، فأصبحت هدفه، وبين الأمرين هوّة واسعة، فما شعرت سابقاً بأيّ فرح. رأيت الصمت والسكون، وأنا الآن أبصر الفرح وحده، ولاشيء سواه.

أرى طيوراً تحلّق، وتنتشي مغرّدة. أنصت إلى سمسات النحل والفراش، وأقرؤ قوس قزح، ما أجمله ذلك القوس. سألت أمّك عن سرّه ذات يوم فأجابتني: قوس قزح هو زنّار فاطمة الزهراء. أكدت أقوالها أمّي التي دسّت في عقلي الصغير معرفة جديدة. قالت لأمّك الفراشات أيضاً وسائد الأنبياء. الله خلقها حتّى يضع الأنبياء

خدودهم عليها.

أمّا نحن فكنّا نسمع ذلك، ثمّ نحمل أسلحتنا، ونخرج إلى الشارع فيطارد بعضنا بعضاً. ذكّرني الفراش، وقوس قزح بجملة والدتك وحكمة والدتي، فابتسمت، وما أن فعلت حتّى رأيتك تشخص أمامي.

هذه المرّة لم تزعق بي. ابتسمت بوجهي، وبدأت تدور حولي. وأنا أدور حول نفسي، إلى أن برز شيء جديد... اتجّه نحوك.

كان ذلك الشيء هو البحر... جاء إليك، فقفزتَ فوق سطحه الهادىء. ازداد لطفه بين يديك، وسطعت زرقته، كأنّه مرجانٌ يستسلم للنسيم.

ثمّ لوّحتَ لي بكفّك.

فاستفقت.

وعلى الرغم من جمال الحلم وتعدّد ألوانه فإنّه لم ينسني الجوع أو الجثّة التي فوقي، وكنت أشعر بعطش شديد، لكنّي لم أكن خائفاً. وقع بصري على قنينة العرق الكبيرة، فوجدتها فارغة. انتهى الكحول والطعام ومازال صديقك وصديقي المعتوه غائباً، وربّما تناهت إليّ رائحة كريهة عجزت عن تمييزها: أهي رائحة الجثّة أم النجاسة حولي.

لكنّي استغربت من نفسي. عبد الجبار غائب وأنا صاحٍ وجائع. اشتمّ رائحة الموت والبراز القريبة منّي ومع ذلك فلا أشعر بالخوف والقلق. أسمع اشتداد القصف فلا آبه له.. كأنّ طعم

الحلم الجميل في فمي ، وحلاوته بين عينيّ تطغيان على كلّ خوف ، أو شعور بالغثيان .

القصف يتكاثف وسط حلمي الجميل العائد لي من النوم .

والجوّ يختنق بالدخان .

وحدي من دون عبد الجبّار .

جائع ، وصاح ، والأغرب من ذلك فأنا غير خائف ، وسعيد في الآن نفسه .

عندئذ قرّرت أنْ أغادر القبو ، لأقصد السيدة والدتك .

عزيزي درويش :

أخيراً خرجت .

وكان الوقت ظهراً .

الساعة تشير إلى منتصف النهار . عثرت تحت القصف بأكداس من الشبابيك المهشّمة ، وقطط وكلاب ميتة . سيّارات محترقة وأخرى هبّت مذعورة . المدينة كانت تتحرّك تحت القصف . مدينة لا يهمّها الموت إطلاقاً و الحوانيت تباشر أعمالها ، السيّارات تتحرّك ، الناس يبيعون ويشترون ، غير مبالين بالقنابل والقذائف .

لستُ أحلم ، فهل هو ذا الحلم الجميل الذي رأيته؟

وكانت عيناي تتابعان دعوات النعيّ على الحيطان . . .

الحزب الشيوعي ينعي الرفيق حسن .

حزب . . الآسلامي ينعي الشهيد المؤمن علي .

التنظيم الناصري ينعي الشهيد ماجد .

القومي السوري يعلن عن استشهاد «خالد» .

حركة أمل تنعي شهيدها «أحمد» .

الحزب . . ينعي ، المنظمة تنعي . . .

كلّ هؤلاء الموتى أعرفهم . إنّهم أصدقاء طفولتي ، فالصور على الحيطان جذبت الذاكرة من غفلة بعيدة لتثير الحزن والأسى ، أذكرك ياخالد جيداً ، كنت عبثيّاً في طفولتك ومراهقتك . في الطفولة حملت مسدساً لاتحشوه بالماء بل بالأصباغ فتلوّث ملابسنا ، وحين دخلت المدرسة الثانوية آمنت بالوجوديّة ، ثمّ متّ على دين القومي السوريّ ، ولعلّك يادرويش تذكر الشهيد عليّ الذي أصبح مؤمناً . آخر مرّة التقيته بعدما تخرجنا من الثانويّة قال إنّه لخّص فلسفة الحياة كلّها بعبارة واحدة : المرأة ذات الشفة الغليظة ذاتُ فرج ضخم ، وكان ماجد الناصريّ يبتسم ويؤكّد قول عليّ ثمّ يعلن أنّه معجب بشخصيّة ديغول لولا صلعته ، في الوقت نفسه هو معجب بهتلر لولا وجهه القبيح ، وقد مات كما أظنّ وفي نفسه شيء من «لولا» .

الشيء الذي لايُصدّق أننا لعبنا جميعاً لعبة الحرب يوم كانتْ أعمارنا خمس سنوات أو سبع ، لم نكن وقتها نعرف معنى الحرب ، ومع ذلك مارسناها بعفويّة ، ومغامرة لذيذة فتساقط المحاربون الآن واحداً بعد الآخر مثلما كانوا يفعلون وهم أطفال . . . ولو كان معي صديقي عبد الجبار لهتف في تلك اللحظة : لله درّ المتنبيّ حيث يقول :

حبّذا العيش حين قومي ... لم تفرّقْ أمورها الأهواء

طبعاً لم يكن صاحب المتنبيّ وأنت من بين القتلى ، وإلّا لقرأت

اسميكما على الجدران.

ومازلت أسيرُ هائماً على وجهي لا أبالي بالقصف مثل بقيّة الناس الذين اعتادوا على الموت كلّ لحظة. الموت لايمنعنا من الحركة. هكذا قرأت في عيونهم، قد أشعر بعد كلّ هذه السنين الطويلة بأنّي غريب عن مدينتي، فأقرأ الوجوه ولا أتحدّث مع الناس. ملامحي تغيرّت. شكلي تبدّل.. وهدفي الوحيد أن أطوي الطريق إلى حيث أزور السيدة والدتك.

كنتُ قد عبرت نحو الزقاق القديم، دخلت حارتي، فسقطت أمام نظراتي بيوتها وشوارعها الضيقة كما هي بالأمس، كأنّ الزمن والقصف عجزا عن النيل منها. هناك بيتنا. كان بيتنا ثمّ بعناه ورحلنا، وفي الزاوية المختنقة بيت خالد، على مقربة منه دار حسن، يقابلها منزل ناصر، وماجد، وحسين، وعليّ، حتّى استقرت بي اللحظة عند بابكم، فوقفت أمامه كالصنم ثمّ تجرأت وطرقته بعد سيلٍ طويل من اللحظات.

ومع طرقاتي خفت صوت القذائف، وتلاشى...

وتناهت إليّ أطراف الحلم الأخير.

- إنّي أسأل عن الخالة أمّ درويش.

إمرأة في الستينّ بين شفتيها تسبيحة هادئة، وصلاة عميقة تقودني إلى غرفة متواضعة. أنا في بيتكم، وهو هو لم يتغيّر. الشباكان المطلّان على الباحة، حنفيّة الماء. المصباح الكهربائيّ ذو القبعة البيضاء شجرة العنب الباسطة أغصانها فوق السطح. كلّ شيء باقٍ

كما هو. . كأنّ يد الزمان عجزت عن تغيير الحجر والشجر، إلاّ والدتك يادرويش.

كم أتعبتها السنين حقّاً، مثلما اتعبتني. وجدتها يادرويش كتلة من العظام جثمت كالتمثال المتعب بوجه عقودٍ سبع، أمّك التي لوت الزمن بين أناملها تجلس متعبة على حصير عتيق، فتروح تحدّق بصمت وقور نحو مجهول ابتلعك!!

فضّلت لو أنّي لم أعثر عليها كي أعيش على أمل أن ألقاها. لكنْ ها هي أمامي كتلة من العظام فقدت السمع والبصر والنطق لاتشعر حتّى بدجاجة اجتازت الباب واستقرّت جنبها على الحصير ثمّ اتّجهت نحو شيء ما انقضّت عليه بمنقارها.

ـ متى رأيت درويش؟

لم أره لكنّي جئت لزيارة الخالة.

كدتُ استسلم لبكاء مرير. كانت المرأة الأخرى تنظر إليّ بحزن بعد أن كانت تأمل منّي أخباراً سارة:

ـ أتشرب القهوة أم تأكل فربّما تكون جائعاً.

مالي وللقهوة؟ اعتدتُ أن أشربها في صباي لتقرأ لي والدتُكَ المستقبل، ثمّ جئت إلى بيتكم من وراء الزمن. عبرتُ عقدين متكاملين لانفض همّي الثقيل، ومع الهموم الجديدة نهضتُ متثاقلاً، فلم أشرب القهوة على أمل أن أراك مرّة أخرى.

وكنت أعود إلى الشارع، وأسيرُ على غير هدى!!.

عزيزي درويش :

وجدت نفسي ثانية في الشارع بعد أن قابلت السيدة والدتك هل أذهب إلى القبو حيث أجد جثّة متعفّنة بانتظاري؟

لكنّ عالماً جديداً أطلّ عليّ.

لم يُعدْ هناك من قصف.

الموت توقفّ عن الحضور، ولا أظنّ الهدوء حلّ ضيفاً مثلما حدث في المرّات السابقة.

لقد أخبرتني عيناي عن السبب وكانتا صادقتين هذه المرّة. . . نعم يادرويش. التفت إلى الحيطان فأدركت فوراً سرّ الهدوء الجميل. .

كانت هناك دعوات نعي من جهات مختلفة عليها صور صديقي وصديقك المعتوه عبد الجبّار:

أمل تنعي عبد الجبار.

الشيوعي ينعي عبد الجبار.

الناصريون. . .

حزب . . . .
القومي السوري
المرابطون . . .
صورته فوق كلّ دعوات النعي . . .

وها أنا أدرك نفسي بموته وأعرف جهلي . كم كنت مغفّلاً حين عجزت عن سبر غوره يوم عاش معي ، وفهمته بعد موته أو في اللحظة التي قرأت نعيه ! !

كان المعتوه يحمل نسخ القرآن إلى المساجد ، ثمّ يقرع أجراس الكنائس ، وينقل زجاجات الخمور إلى البارات والمراقص . يقرأ للماركسيين نظريتهم ، وينشد عن ظهر قلب للقوميين فلسفتهم ، وفي النهاية ينسب كلّ الأفكار إلى شاعره العظيم المتنبيّ .

كان يعلن انتماءه للجميع بوقت واحد على حين راح الجميع يعلنون انتماءاتهم بمقدار رواتب تدخل جيوبهم ، ولو فعل المعتوه مثلما يفعل الآخرون لما اضطرّ إلى بيع كليته . . الآن ، وبعد فوات الأوان ، فهمت المعتوه أكثر ممّا أفهم نفسي ، حتّى لقائي به ظننته إلى وقت قريب من باب المصادفة . آخر لحظة أدركتُ جيداً أنّ المصادفة غير موجودة في قاموسه ، وقد قال لي يوماً إنّه يجتاز الحواجز فلا يوقفه أحد ، فلأكن أنا واحداً من الحواجز التي عبرها إلى موته .

المهمّ أنّه صدمني إلى أن استفقت من كابوس ثقيل ظلّ يجثم على صدري ، فخرجت اليوم لواقع جديد ، تنعّمت فيه بالهدوء .
فمن قتله ياتُرى؟

لعلّه مات موتاً طبيعيّاً.

وبموته أو مصرعه لم يبق من أصدقاء الطفولة إلا أثنان فقط: واحدٌ حيّ هو أنا، والآخر مجهول المكان هو أنت..

كنت أسأل نفسي عنك، وأنا أسير وسط السكون من دون أن أعرف إلى أين أسير...

فمتى أعثر عليك يادرويش؟

البهلول

رواية مسرحية

المقدمة

هـذه الروايـة فرضت عـليّ شكلهـا الـذي وضعتـه بـين يـدي القارىء فحين أتممت كتابة الفصل الأوّل، وجدتني أجنح إلى كتابـة الفصل الثاني بصيغة مسرحيّة، فتكون لديّ عمـل أدبيّ نصفه الأوّل روايـة ونصفه الآخـر مسرحيّة، ثمّ انتبهتُ إلى أنّ النصفـين يكادان يحققان تكاملهماالذاتي، فالفصل الأوّل قصّة كاملة تنتهي حيث تبدأ المسرحيّة، على أنّ أحدهما يكمل الآخر.

لم أتعمّـد بالـطبع أن أجعـل عملي بصيغتـه الحاليّـة بـل شكـل العمل فرض نفسه عليّ، ودلّني على صيغته بيسر وسهولة، فـاخترت له أسماً هو «روا مسرحيّة» وإن كان اختيار الاسم ليس من مهمّتي بل هو مهمّة الناقد والدارس قبل كلّ شيء.

الفصل الأوّل

يطلق الناسُ عليّ اسم البهلول . .

ولست مسؤولاً عن هذه التسمية أو معنياً بمعرفة أبعادها، غير أنّ الأسماء ليست كالملابس والطعام يمكن أن نختارها نحن بل هي شيء يُفرض علينا من الآخرين .

وإذا كنت قد عرفت من الآخرين اسمي ، فإنّي لاأعرف إطلاقاً أصلي، ولا أعي كيف جئت إلى هذه الحياة. هناك حكايات كثيرة نُسِجَت حول أبويّ ، بعضها معقول، يمكن للسامع أن يفهم مغزاه وفق ماجُبِلت عليه نفسيّة قائله من خير وشرّ. الشرير يقول عنّي : إنّ أمّ البهلول القته وهو طفل على أحد الأرصفة لتهرب من العار، أمّا حين يكون المتحدّث طيب السريرة لايحبّ الغمز واللمز، فيدّعي أنّ البهلول ولد لأبوين غنيين. ثمّ أصاب المدينة طاعون جارف فمات الأبوان وصارع الطفل الصغير المنيّة حتّى تغلّب عليها، وعاش أخيراً لكنّ لوثةً ماأصابت عقله من جرّاء الحمى والمرض . . .

أمّا من يحبّ الأساطير، وهؤلاء كثر، فكانوا ينسبون أحد والدّي ، وغالباً ماتكون الأمّ، إلى الجنّ . . . .

هكذا وجدتني ذات يوم . . .

كأنّي لم أكن لأدرك الزمن إلاّ وأنا غلام يافع . . . عليّ أثواب رثّة . يداي فارغتان من أيّ شيء، ورجلاي حافيتان . . . وكنت أصدّق كلّ الحكايات حول نشأتي، التذّ لسماعها، وأعدّها كلّها صحيحة، فقد راحت تتجدّد باستمرار. تموت حكايات وتُخلق أخرى. إنّ القصص التي تنشأ حولي تشبه الجنس البشريّ تماماً. أحداها تلد الأخرى تتعايشان فترة، ثمّ تفترقان، حتّى تموت الأولى، فتلد الحيّةُ الخارجة منها حكاية أخرى.

وعلى الرغم من كثرة الحكايات حولي، فلم يهتمّ أحدٌ لحياتي الخاصّة. تجاهل النّاس سكني، ومأواي. لا أحد يدرك ذلك أو يكلّف نفسه بالحديث عنه مثلما تُختَلق الأحاديث بين الحين والآخر عن يوم مولدي.

لكنني عشت لا مأوى لي ولا سكن . . .

أتجوّل نهاراً، وأبات ليلاً على الأرصفة أو تحت الجسور أتخذها مأوى من الشمس والمطر، فإذا ما مسّني الجوع خرجت إلى الشوارع، أدخل المطاعم والمقاهي، وأردد عبارتي الشهيرة: آه لو كنت سلطان العالم ليوم واحد فقط!!

كانت تلك هي الجملة الوحيدة التي لايملّ لساني منها، بل لا أعرف غيرها. كيف تعلمتها، من علمني إياها. لا أعرف. كلّ ماأذكره أنّي عرفتها قبل أن اكتشف قدرتي على الكلام والثرثرة. مادام الناسُ مختلفين في أصلي واحدٌ يقول إنّ أمّي من الجنّ، والاخر

يعدّ البهلول ابن زنا، والثالث له تفسير مبهم، فليكن طموحي غير محدود، لأصير أسطورة كلّ الأمم والشعوب . . .

هذا التصوّر لخصّته جملتي: آه لو كنت سلطان العالم. لم يكن لي حديث آخر غير هذه الكلمة، ولا أكلّم أيّ إنسان بحديث ثان سواها، ولعلّني لا أعرف غيرها. كلّما أمضّني الجوع خرجت من مكمني المجهول، غادرت الرصيف، أو الجسر، ودخلت المطعم لأصرخ: آه لو كنت سلطان العالم يوماً واحداً. فيسألني أحد الجالسين: يوماً واحداً فقط؟ فأعيد جملتي السابقة. عندئذ يتمتم رجل ثان: لكنك لا تستطيع أن تحكم العالم وأنت جائع . . . ثمّ يأمر صاحب المطعم أن يجلب لي طعاماً يختاره هو، وغالباً مايكون على شاكلة طعام الشخص المتبرّع . . . بعض الروّاد يبخلون بطلب الطعام، ويعطونني مما يفيض عن حاجتهم . . .

وأنا أخبط في الشوارع خبط عشواء وأتمتم: آه لو كنت سلطان العالم يوماً واحداً فقط . . .

أيّها البهلول لو حكمت العالم ماذا كنت تفعل؟

أجلس مفكّراً متمتّعاً بضوء القمر. مشاريع كثيرة في رأسي عليّ أنْ أحققها خلال أربع وعشرين ساعة فقط. كيف تولّدت تلك الرغبة في نفسي، وجعلتني أجهر بها وحدها. لاشيء آخر ـ كما أظنّ ـ غير الجوع الجوع يقرص أحشائي، والبرد ينهش صدري وكتفي، فيخلق في ذاتي رغبة عارمة تجعلني أتمنّى أن أحكم العالم، وتجعل الآخرين يطلقون عليّ لقب المجنون، وعندما يغزو عينيّ

النـوم، أحلم بأنّي أصبحت ملك العـالم كلّه. . . نعم هـذا الكـون المترامي الأطراف، ورثتـه عن جنّيّة القتني عـلى أحد الأرصفـة ذات يوم ورحلت إلى مكانٍ ما. . .

في أحـد الأيام، وبينـما كنت أتجوّل بحثـاً عن طعـام، أبصرت شيخاً ذا لحية بيضاء طويلة، شيخاً مهيب الطلعـة، حادّ النـظرات، صـارم القسمات، تنـطق هيبتـه وشكله عن وقـار ورزانـة. تـوقّفت أمامه، وصحتُ كلّما بدأت معدتي بالقرقرة: آه لو حكمت العالم يوماً واحداً فقط.

التفت إلى الشيخ، وحدجني بنظرة ثاقبـة، ثمّ مدّ يـده إلى جيبه وقبل أن يخرج قطعة نقودٍ مدوّرة صفراء سألني:

ـ قلّ لي ماذا تفعل لو حكمت العالم؟!

كنت أتـوقع أن يـأمر لي بـطعام ـ شـأن العادة الجـارية ـ لكنّـه يرغب في أن يمنحني نقوداً، وهو عمل لم يسبقه إليه أحد. ماذا أفعـل لـو حكمت العـالم. السؤال مفـاجىء، والشيـخ واقف يقبض عـلى القطعة الصفراء، وينظر إليّ بابتسامـة رزنة. كيف أجيب عن سؤال أنا غير مستعد للإجابة عنه. ربّما هو الجوع الشديد جعلني، وقتهـا، أنـطق غريـزيّاً تلك الجملة، لكنْ عـليّ ألا أضيّع الفـرصة، فبـطني الخاويّة تحرّضني، لأفكّ عقدة الصمت عن لساني:

ـ أيّهـا السيد الـوقور سـأجيبـك بصراحـة. لـو حكمت العـالم لأعطيت كلّ فقير بيتاً، وكـلّ جائـع طعامـاً، ولأصبح النـاس كلّهم أغنياء. .

ـ وحين أتممت كلامي، ناولني الشيخ قطعة النقود الصفراء التي لامست يدي للمرّة الأولى. . .

عدت إلى الصمت بعد أن استقرّت القطعة في يدي، فانطلقت بها. لقد أنساني بريقها أن أعبّر للرجل المهيب عن امتناني بنظرة. لم التفت إليه، كأنّ البريق أعشاني، فأنا لا أشكر أحداً بالكلام بل عبر النظرات ولم أكن لأعرف سابقاً إلاّ جملة واحدة أملاها عليّ جوع بطني، وكان الناس يسدّون جوعي بالطعام. لاأذكر أنّ أحداً مدّ يده ومنحني قطعة نقود. .

لكنّي أدركت أخيراً شيئاً ما غير عاديّ. الصمت نفسه نفر منّي ولّما يعد إليّ بعد.

الآن أدرك أنّي أتكلّم. . . وأنطق كما ينطق الناس. . .

على أيّة حال دخلت المطعم، وكم كانت دهشة الحاضرين كبيرة حين رأوا قطعة النقود اللامعة الصفراء بيدي، لكنّ صاحب المطعم رفض أن يأخذ أجراً عن الطعام. أحد الزبائن تكفلّ ـ كما يحدث في السابق ـ بإطعامي. لم يشكّ أيّ منهم بأنّي سارق أو مختلس، على أنّ نسيت حين دخلت المطعم أن أتطلّع في الوجوه واهتف: آه لو حكمت العالم يوماً واحداً فقط، وقد غفلت عن نفسي بأنّي بدأت أثرثر، أمّا الناس فكانوا يرغبون فيّ صامتاً، المفاجأة شلّت ألسنتهم فلاذوا بالصمت، كأنّي الحلم الجميل الذي تعيشه مدينتي، ولا يرغب أهلها في أن يتحرّروا منه، فهل حقّاً أنا حلمهم؟ وإلى متى استمّر ومعي قطعة نقود صفراء لاأحد يقبل أن يستلمها مني ثمناً لما

أطلبه من طعام . . .

صحوت من نومي صباح اليوم التالي، وتحسست جيبي. لم أكن أحلم قطّ، فها هي القطعة تستقّر على راحة يدي، تلمع مع شروق الشمس. لقد جعلتني أحلم أحلاماً عريضة، بعضها جميل، وبعضها أحلام مزعجة، وبين الفرحة والحزن زمنٌ قياسي ضيق. كنت نائماً وماصمتي إلا عبارة عن نوم، ثمّ استفقت على البريق الصاخب، فتعلمت الكلام لأنني عشت أنصتُ وأنصت. الآن جاء دوري لأتكلّم، أمّا هؤلاء الناس الطيبون فيرفضون أن يأخذوا منّي نقوداً لقاء ماآكله وأشربه. المساكين مازالوا يعيشون عصر صمتي. يظنون أنفسهم متوغلين داخل حلم مزعج، ويأملون بالصحوة يوماً ما، ليجدوني صامتاً لا أعرف إلا جملة واحدة، آكل وأشرب من إحسانهم. يريدونني واقعاً وأسطورة ساعدهم في خلقها أصلي الغامض، وما أنا إلّا واقع تجسّد فجأة أمام عيونهم على النقيض ممّا ظنّوه . .

أهي رغبة في الانتقام؟

كلّا أبداً. اليوم فقط صباحاً انتبهت بفضل الشيخ الوقور ذي اللحية البيضاء إلى أنّ الاسطورة انتهت، فدخلت المطعم وفاجأت روّاده، فلاذ الحاضرون منّي بالصمت المطبق.

كان سهلاً عليّ أن أصمت وأسمعهم يتحدّثون، وفي الوهلة الأولى صعب عليّ أن أتحدّث وأراهم صامتين. مساء أمس فجأة، سقط الصمت من شفتيّ وتلاشى، لكنّي كنت أسمعهم، وكانت

أحاديثم متشعّبة ومختلفة إنّها تمثّل هموماً متداخلة: الحبّ، الغرام، السياسة، الاقتصاد، غلاء الأسعار، سمعتُ عن خيانات زوجيّة، وعن أناس يكرهون أو يحبون الحكومة، وآخرين في السجون، وسمعت عن راقصات، وعشيقات، ومغامرات مختلفة، وحروب شتّى.

ولم تكن كلّ هذه عوالم مدينتي، فهناك عوالم عجزت أذناي عن الوصول إليها، وكنت كلما سمعتُ أكثر، صمتُ أكثر. الكلام ينغرز فيّ، وأنا أهاجر إلى الصمت، والآن الآن جاء دوري . . .

حين أشبعت بطني اتخذت طريقي إلى وكري الممتدّ مع الفضاء المطلق، مررت على الخربة شأني كلّ مرّة، اعتدتُ أن أغادر مكاني المجهول، وأشبع بطني بعد أن أبيع الناس جملتي المشهورة، ثمّ انطلق من المطعم، وأميل إلى الخربة فأرى الشيخ الصوفي. أنا لاأتبع طريقته، كما لايعنيني اسمه وأسماء بقية الناس. أراه وهو في جلسته التي هو عليها منذ أن أبصرت عيناي النور، فقد أعتاد ألا يغيّر مكانه، ولا يتزحزح عن موضعه، ثمّ أنصت إلى الغناء حوله. ألتذّ للنغم فأشعر بالانشراح إنّ خربته تشبه ناراً أهرب إليها من برد الشتاء، فأتدفّأ بها وأتركها إلى مكاني المجهول. كنت لاأعرف مكاناً معيّناً آوي إليه، على النقيض من ذلك الشيخ الذي لايغيّر موضعه، وهو صامت مثلي، لكنّه لاينطق جملة واحدة، فكيف لي بإنْ أفهمه.

هذه المرّة توقفت طويلاً أمام الشيخ، وكنت أتحسس بين الحين والآخر قطعة النقود. فجأة انتقلت عيناه من المطلق وقعتا على وجهي

مباشرة.. سألت نفسي هل كتب عليّ أن أميل نحو الخربة كلّما خرجت من المطعم. لابّد لي من أن أفعل ذلك لأنّ الشيخ أتخذ مكانه عبر الطريق الموصل إلى المطعم. كنت أستطيع أن أراقبه، أما أن أفهم ماأقوله فتلك ليست مشكلتي. أرتاح للنظر إليه. ارتاح لسماع الغناء حوله، وذلك يكفيني، لاأستطيع أن أقترب منه أكثر، فهو كالنار في قربها لذّة، وبلمسها ضرر. وحين أحس بأفكاري الشاردة عنه، نطق من دون أن ينظر إليّ. قال:

ـ لقد نطقت فاذهب.

قلت: ياسيدي شيخ مثلك أعطاني هذه. أخرجت قطعة النقود ولوّحت بها له، غير أنّه ظلّ يحدّق بالشمس:

ـ أنت مسكين كنت لكلّ الناس فأصبحت لكَ وحدك.

ـ لعلي أجد عندك ماأطلبه.

ـ الزمن لايُشرى بمال.

ـ غير أنّك الوحيد الذي تكلّم معي.

ـ إذن عليك أن تهرب.

ـ أهرب؟!

ـ تذكّر أنّي لاأعيد القول مرتين.

الواقع خامرني شعور غريب، امتزج الخوف بالرضا والتردّد بعد أن أنصتّ إلى كلام الصّوفي. يقول لي أهرب: الأنّي أملك قطعة نقود أهرب لكنْ إلى أين ومن أين. كنت سمعتُ من الناس يوم كنت صامتاً أنّ الشيخ يعرف الطالع، يقرأ بواطن الأمور بعينيه

الشاردتين إلى البعيد. قطعت عليه حيرته وحيرتي، وتجرأت على السؤال:

- إلى أين أهرب؟

- فسمعت تمتمة من بين شفتيه:

- من القضاء والقدر...

وقطع علينا الكلام دخول المريدين والاتباع، فشكّلوا حلقة حول الشيخ. بدؤا يدورون حوله، هو يهزّ رأسه، وهم ينشدون أعذب الألحان. استمرت الحلقة تبحر في اللانهاية، وأنا بانتظار أن يتوقّفوا حتّى أعود إلى سؤالي لكنّ الحلقة لم تقف. استمرّت في الدوران والشيخ جالس وسطها، رأسه يتحرك عدا عينيه المبحرتين في الفضاء، أما أنا فقد تعبت من الوقوف. خدرت يدي من القبض على القطعة الصفراء، فخرجت من الحلقة، وأنا مصمم على الهرب، فقد نطقت الآن... ومع نطقي سكتت المدينة كلّها عدا حلقة الصوفيين وما عليّ إلّا أن أعلن سفري...

في الوقت نفسه غادرت مكاني السابق، وأنا مصممٌ على الإعلان والبوح بنيّتي في السّفر الذي لاأعرف متى ينتهي. إنّ معي ثروة طائلة من الكلمات جمعتها خلال سنين وسنين، ولا أحد هنا يتعامل معي بها، أمّا قطعة النقود الصّفراء فقد أثقلت جيبي، وكلام شيخ الخربة بعث الخوف قليلاً في نفسي، ما علي إلا أن أهرب.

الساعات القليلة القادمة لم آكل، فقد خيّل إليّ أنّ زبائن المطعم، ورواد المقهى تحوّلوا إلى مجرّد تماثيل باردة عاجزة عن

النطق، وكذلك كان الناس في الشارع. القطعة الصفراء فتحت عقدة لساني، وشلّت ألسنتهم.

أدركت أنّي عزمت على السّفر فعلاً. حدثت نفسي طويلاً إذ لم أجد أحداً يجيبني. قلت ألقي على الخربة نظرة وداع، ولعلّي أعرف من الشيخ إلى أين أذهب. وجدته وحده. جثوت أمامه. قلت له يامولاي أشرتَ عليّ بالهرب، وها أنا أهرب لكنْ لم تقل لي إلى أين، فتلألأ وجهه بالمطلق الواسع، ولم ينطق، ومثلما حدث صباحاً، حدث الآن. دخلت جوقة المنشدين وتحلقت حول الشيخ. كانت هذه المرّة تغنّي بصوت واضح:

الليالي برؤانا موغلة حين كنّا بدجاها موغلين
والأماني لحظات مثقلة بهوى منه سقطنا متعبين

هداني عقلي، وسط الصخب والغناء إلى السفر عبر البحر، فتوجّهت إلى الميناء حيث من هناك أستطيع أن أستقلّ إحدى السفن الموشكة على السّفر وجدت الميناء ساكناً. يكاد يكون خاوياً إلّا من سفينة واحدة، ومجموعة حرّاس، وطاقم... استقبلني القبطان مرحّباً، وتحدّث معي، وأخبرني أنّ عليّ أن أنتظر إلى الليل، فالسفينة لاتبحر نهاراً لاشيء يحمل السفينة إلّا الريح. أكّد القبطان القول: والريح الآن صامتة لاترغب في الكلام...

وفيما يشبه التردّد والعزم انتبهت إلى الوقت. إنّه واسع أمامي فنحن الآن لم نتخطّ النهار إلى المغرب بعد، والسفينة لاتبحر إلّا منتصف الليل، وحتّى تلك اللحظة الراهنة، عجزت عن انتزاع

الكلام من أفواه الناس إلا اثنين هما: شيخ الخربة، والقبطان. سوف أرجع أتجوّل في المدينة قبل أن تميل الشمس إلى المغرب لألقي عليها نظرة الوداع.

خلال تجوالي قررت أن أنعطف على الخربة لقضاء الوقت. فجأة قبل أن أميل برزت إليّ امرأة. مالت من الممّر الجانبيّ المحاذي لدرب الخربة. كانت رائعة الجمال. فاتنة الوجه، رشيقة القوام. لم أر امرأة بمثل جمالها قط. كنت أعيش بعيداً عن النساء، لا أعرف شكل المتعة. ماله وللنساء ذلك المشرّد الذي يجهل كيف أتى للعالم. يكفيه مقدار من الطعام يلقيه إليه أحد الطاعمين أو كأس شاي يتبرع به أحد الزبائن حين يسمع كلمتي الوحيدة: آه لو حكمت العالم يوماً واحداً فقط. ماتت شهوتي إلى النساء يوم ولدت، أمّا هذه القطعة الصّفراء التي تركن داخل جيبي، فتثير شبقي، وتزيدني رغبة كلّما احتكت بيدي، أو لمست جسدي. استوقفتني الحورية الرائعة. تلفتت كالغزالة الخائفة وهمست: هل ترغب فيّ؟ ارتعشت شفتاي، وظننت أنّ شرارة ما تجتاج جسدي فأجبت بصوت متقطّع: ليس عندي مكان. ثمّ انتبهت إلى أنّها رابع شخص يتحدّث معي في مدينة صمتت فجأة حين أصابني النطق. قالت: اتبعني. حثّت الخطا أمامي، فسرت في أثرها. كانت تلتفت نحوي بين حين وآخر. أخيراً دخلت من باب نصف مفتوح، فدلفت خلفها. أصبحنا وحدنا... بيت واسعٌ، وباحة مكشوفة للسماء، وسط الساحة حنفية ماؤها يقطر، وعصفور يلتقط، وهو يحلق،

بعض القطرات.

ابتسمت وعقّبت: هل أنت خائف؟!

صمتّ. كان قلبي يدقّ بعنف. تلك مغامرة مجهولة لي. صحيح أنّي عشت مشرّداً لكنّي لم أدخل بيتاً من قبل. قبل القطعة الصفراء هذه ترددت على المطاعم والبيوت، وهذه هي المرّة الأولى التي أدخل فيها بيتاً، فكيف أقاوم الخوف والإغراء معاً.

حثّتها حيرتي على سؤالي: عطشان؟

هززت رأسي بالإيجاب، فانصرفت إلى الحنفيّة، وكان العصفور قد حلّق. ملأت كأساً بالماء، وعادت إليّ، ولمّا ارتويت. ألحت في السؤال!

ـ كم تدفع؟

ـ أدفع؟

سألت نفسي مراراً. معي القطعة الصّفراء، وهي ثمن التذكرة للهرب سوف يخلو جيبي إذا امنحها أيّاها، لكنّ الرغبة العارمة أعمتني عن الحقيقة وشيطاني الأخرس الناطق سوّغ لي الأمر. لابدّ أنّي سأحصل على قطعة نقود أخرى أدفعها أجراً للسفر. هكذا وبكلّ بساطة فسّرت الأمور. قلت لنفسي، وأنا أعوم وسط موج من الشهوة والرغبة: الزمان طويل، من المغرب إلى منتصف الليل وقت كاف أستغلّه بسؤال النّاس فأوفّر ثمن العبور.

قلت وقد أخرجت القطعة الذهبيّة من جيبي: هي كلّ ثروتي...

هزّت رأسها بعد تردّد وتناولتها منّي . . .

وخلال دقائق حسبت أنّي خلقت من جديد . . . كنت أعمى أفكّر من أنا، وكيف جئت إلى العالم. استهلكني الصمت، فغفلت عن عوالم كثيرة. قبل قليل عرفت صنفاً من اللذّة غير الطعام والشراب، لكنّي أشعر بالقلق والحيرة. جيبي خاو وشيخ الخربة يحثّني على الهرب: أهرب . . . أهرب. كيف أهرب، وقد أعطيت ثمن التذكرة لامرأة جعلتني أعيش العمر كلّه . . . جعلتني أدرك مكامن رجولتي . . .

امرأة واحدة أدركتني في وقت ضيق، منذ تلك اللحظة خامرني عطش إلى النساء، عرفت الظمأ بعد أن ذقت الماء. كانت كلّ الأشياء أمامي تزهو، فلا أشعر بلذّتها وعمقها. أرى الماء فلا أعطش، ولا يهزّني الغدير. أسمع التغريد، وأنصت لحلقة المنشدين، فينشرح صدري من دون أن أفهم. بدأت أفهم بعد أن شربت من الماء الجاري حولي، فأدركت مافاتني، وأدركني ما سأمرّ به، غير أنّ المدينة نفرت منّي، ولجأت إلى الصّمت، وهو سلاحها الأخير.

مالذي يريدونه منّي؟

أنا الآن شخص مثلهم، ولستُ أسطورة أو منحدراً من المجهول. لي يدان وعينان، ورأس، وجسد. أريد أن أعرف من هي أمّي، ومن هو أبي، لِمَ يختلفون في، ولا أختلف فيهم، ثمّ يطلب منّي الشيخ المستقرّ في مكانه ونظراته أن أهرب، فمن أين أهرب،

وإلى أين؟

فكّرت بالهرب أو الرحيل. سأسافر إلى مكان آخر، وأمكنة أخرى سمعت بأسمائها من الناس عندما كنت صامتاً. أراضٍ مترامية الأطراف، وشعوب مختلفة. هم مثلنا لهم عيون وآذان ورؤوس، ولهم ألوان صفراء وبيضاء وسوداء وشقراء، ولهم مثلنا مشاكل متعدّدة منها السكن والفقر، والأزمات، ولي أمنية هي أن أصبح ملكاً على الجميع مدّة يوم واحد لأحلّ مشاكله!!

تلك هي رحلتي، فَلِمَ أسافر وحيداً؟ لا أدري. خاطرة جديدة غزت فكري. المرأة التي علمتني أشياء وأشياء كنت أجهلها من قبل: القبلة، النشوة، النظرة، الجسد، عبرها أدركت شيخ الخربة أيضاً، فلِمَ لا أسألها أن تسافر معي.

قد يكون الدافع غريباً نوعاً من ما، ويكاد يخلو من نزاهة تامّة، لو أنّي أسال نفسي: ربّما حاولت بعرضي السّفر عليها أن أستفيد من قطعة النقود، بتعبير آخر: ما أعطيتها يكفينا نحن الأثنين أجر سفر، على أنّ التفكير السابق لايخلو من براءة. إنّي أحسّ برغبة شديد، رغبة جارفة تدفعني إليها. لاأستطيع الاستغناء عن الهرب أو الرحيل لأنّي خائف ومتردّد. شكّاك. أحداث غريبة دفعتني إلى الخوف والشكّ، منها كلام الشيخ، وصمت الناس، والقطعة الصّفراء، بالوقت نفسه اكتشفت عوالم جديدة عبر جسد هذه المرأة الرائعة. البحر أمامي، وهي خلفي، فهل تقبل السّفر معي؟

أخيراً.

رجعت إليها. عدت من نفس الطريق، طويت الدرب القصير الذي بدا لي طويلاً كنظرات الشيخ، وفي آخر لحظة سقطتُ بخيبتي...

وجدت الباب مغلقاً. كان الشارع فارغاً من المارّة، وكنت أقف وحدي بالباب. نقرت بيد مرتعشةٍ مرّة وثانية، وثالثة... أخرى، ورابعة. لاجواب، ولاحركة سوى صوت طرقاتي. وقفت طويلاً أنتظر لعلّ أحداً يمرّ فيفتح الباب... حتّى يئست أدركت أني لاأستطيع أن أنتظرها أكثر...

في اللحظة نفسها طاردني حلمٌ غريب أبعد من قدرتي على البصر والتأمل، حلمت بأمّي الحقيقيّة. إنّها بين بين. كان نصفها الشمال من الجنّ، واليمين من الإنس. لاأقدر على وصفها بدقّة، وآخر ماأذكره عنها أنّها كانت بعيدة عنّي. سألتها أن تقترب فأجابت إنّي أعمى وهي أقرب إليّ من كلّ الأشياء. رأيت فجأة عن يمينها شيخ الطريقة جالساً يحدّق فيّ كأنّي أنا المطلق الصعب والأفق الوعر الذي تغزوه حوافر خيوله، أمّا عن يسارها فانتشرت المدينة كلّها.

سألتها بغضب: عيناي لاتكذبان.

فأجابت: أنت لاتصدّقهما.

قلت محتدّاً: مشكلتي أنّ الناس مختلفون فيّ وأنا صامت، صامتون حولي وأنا ناطق.

أطلقت ابتسامة يائسة كأنّي خيّبت أملها، وعقبت:

ـ أنت تنام في العراء وتأكلُ كالناس مع ذلك لايعتريك بردٌ أو

حرّ ولاتتعرض لمرض . . .

قاطعتها بضجر : شيخ الخربة يفعل فعلي ولم يختلفوا فيه .

فقاطعت بحدّة : لأنّه يعرف كلّ شيء ! !

كلامها يشبه الألغاز . يشبه كلام شيخ الطريقة ، وهي تدّعي أنّها لاتفترق عنه . بعض الأحيان تكون الأشياء السهلة صعبة الفهم لسهولتها ، فكيف أفهم امرأة نصفها من جنّ والآخر من أنس كما تخيلتها أنا لأوفّق بين اختلاف الناس ، فبعضهم يظنّ تلك المرأة - أمّي - من الجنّ ، وبعضهم يظنها إنساناً ولكي أوفّق بين الاختلاف جعلتها وفق صورة الجنّ والإنس فتعلمت كلاماً سهلاً لايفهم أشبه بكلام شيخ الخربة .

لكنّي تجرّدت عن الحلم الذي اتعبني ، فوجدتني استغني عن كلّ شيء إلا حلم الواقع القريب ، وعندما استيقظ أجدني أنسى الحلم السابق وأستغني عن كلّ شيء سوى حلمٍ واقعٍ يدفعني لأن أصبح سلطان العالم مدّة يوم واحد فقط . فكلّما تعقدت الحياة بصفة أعمق ازدادت رغبتي . لأفرض أنّي أخفقت في رسم السعادة على وجوه الآخرين ، فما الذي يمكنني أن أفعله في تلك اللحظة ، أعني لحظة انصرام اليوم ؟ ! يمكنني أن أفكّر بتدمير العالم لو كنت أملك القوّة لأنّ ماأعجز عنه أنا لايستطيع أحدٌ غيري أن يحققه ، فأنا مقياس الأشياء ، وبذلك الشكل فكّرت : أمّا أن أعلن عن تدميري للعالم أو أن أحقق له السعادة خلال أربع وعشرين ساعة من دون أن أفكّر لماذا اخترت هذا الوقت الضيق بالذات ، لِمَ لَمْ أقلْ سنة أو شهراً أو دهراً ،

ربّما هي المصادفة دفعتني إلى نطق الكلمة قبل غيرها، فلقد رأيت الشمس تشرق وتغرب ثمّ تشرق فيكون يوم، وأظنني أدركت في أعماقي أنّ اليوم هو قاعدة ترتكز عليها الأسابيع والشهور والسنين، ومانحققه في دهر كامل نستطيع أن نحققه ضمن يوم . . .

يمكن ذلك. سأترك الأمر للمصادفة والحلم الواقع، فمنه أصبح ملكاً على العالم مدّة يوم واحد، ولن يحدث إلاّ إذا نزلتْ الأحلام إلى الواقع، وكيف لها أن تنزل وقد شارفت على الرحيل أو الهرب كما يسميّه شيخ الخربة!!

وكنت أقترب منه ثانية . . .

اقترب فأتَعجّله في أن يكون أصعب نطقاً لئلا أتعب نفسي في فهم مايقول لي مثل الهرب الرحيل . . . لقد صمتُ طويلاً ونطقت وفي كلتا الحالتين فهمت الناس وعجزت عن فهم الشيخ!!

قادتني قدماي إلى الخربة مرّة أخرى. فهل أحبّ هذا المكان لأنّي لا أفهمه بعض الأحيان أنسهُ، وأسمع غناءه، لكنّي غير مغرم به، أو لأقول حالة متناقضة لاأستطيع التعبير عنها، فلماذا تقودني قدماي إليه ولماذا أواجهه كلّما تركته، في كلّ الأحوال: سواء كنت صامتاً أم ناطقاً؟!

وجدت الشيخ جالساً في مكانه كعادته كلّ لحظة. كان يبحر في الأفق البعيد، ولي رغبة بأن أسأله: يامولاي أنت المبحر في الأفق، نحو السماء، وأنا أنوي السفر عبر البحر، هل نلتقي؟ كيف تحطّ السّماء على البحر، في غير ما غروب، وكيف ينسج البحر ملاحمه من

الشمس الهابطة فيه عبر المساء، هل يمكن أن نلتقي ياسيدي الشيخ أنا وأنت، متى نلتقي؟ وفي أيّ مكان؟ قل لي إن كنت تعلم، فأنا بدأت أعلم بعض الذي يجري حولي. عندي امرأة جميلة التقتني ورحلت قبل أن أرحل، وكنت أملك قطعة نقود. أجل، كنت أملكها، ولا أريد لكلماتك فيّ أن تضيع . . .

هذا، والشيخ جالسٌ في مكانه، يبحر نحو الأفق البعيد، من المحتمل أنّه أحسّ بوجودي حتّى همس:

ـ إنّك تستطيع ولا تستطيع.

اجتاحني تيّار من الحزن فهو يريدني أن أفهم التناقض مجتمعاً، وذلك مالا أقدر عليه وحدي. أجبت:

ـ يامولاي: لو قلت تستطيع لفهمت، ولو قلت لاتستطيع لفهمت، غير أنّك مصرّ على وضعي بين متنافرين لا طاقة لي بهما.

رأيته كأنّه يهزّ رأسه ويستطرد:

ـ الحزن وحده لايكفي، كما لايكفيك أن تدرك نصف الأشياء.

تيّار الحزن يزداد في عمقي، وعبثاً حاولت أن استفزّ عواطفه:

ـ أشرت عليّ ياسيدي بالهرب. فوجدت الرياح عاطلة، والسفن تنتظر، وعند انتظاري غفلت فضاع منّي أجر سفري.

ـ ليتك أضعته لكنك ضعت فيه.

قلت مع نفسي: لِمَ أفهم الناس، وأعجز عن هذا الرجل، وما كدت أتمّ جملتي حتّى حضرت الجوقة، برزوا من مكمنهم

المكشوف، وبدؤا ينشدون، وهم يدورون حوله . . .

كدت أنسى نفسي، واندسّ معهم لولا أنّي تذكرت الزمن والسفينة المبحرة منتصف الليل. خرجت من الخربة إلى الناس الصامتين أمّد يدي طالباً العون منهم، لأجمع تذكرة السفر. أوقفت بعض المارّة. سألت النساء العابرات. رجوت بعض الناس أعرضوا عنّي، وعددٌ منهم أعطاني ماسألته دون تردّد. . . لم أعدّ ماجمعته ذلك اليوم. . . لكني ظننت أنّه كاف لأجرة النقل. . .

وقبل ساعات من الإبحار، كنت أقف عند الساحل بانتظار أن تهبّ الريح، لأبحر في السفينة. . .

فجأة. . .

اندفعت مجموعة من مكانها. . . وتحلقت حولي. أصبحت كالشيخ الصوفيّ وسط دائرة مغلقة، وفي اللحظة الأخيرة انتبهت إلى صوت خشن يصيح بي: مكانك لاتتحرّك. . .

وكان الذين حولي يتكلّمون. . .

رضخت للأمر الواقع وسرت معهم. إذ لم أكن لأملك أيّ خيار. ساروا بي حتى وصلت إلى منزل فخم محاط بالحرس. اجتزت برفقة الأشخاص المعنيين بي ممراً عريضاً، ثمّ انتهينا إلى غرفة دافئة. خلعوا ملابسي، جرّدوني منها تماماً، وعبر لحظات أنساب ماءٌ دافىء من صنبور معلّق بالسقف فغطّى جسدي كلّه. وفاحت من المكان رائحة عطرة غمرت جسدي. أحضر بعض الواقفين بالباب ملابس نظيفة، ساعدني أحدهم على ارتدائها، ثمّ سرت معهم إلى غرفة

أخرى . . .

هناك على أحد المقاعد الوثيرة رأيته . . . رأيته بأمّ عينيّ هو الشيخ الوقور الذي أعطاني قطعة النقود الصّفراء اللامعة . أطلّ عليّ بابتسامته ، عندئذ تذكرت الكلام ، استعادت ذاكرتي من صمتي أحاديث الناس في المقهى ، فأدركت أنّي أفهم كلّ شيء ، وأنّ الصّمت كان حالة سبات أعيها بأذنيّ ، وتعمّد الشيخ تلك اللحظة أن يسألني السؤال نفسه : ماذا تفعل لو ملكت العالم؟ أجبته : يامولاي إنّي أخبرتك بالامس . هزّ الرجل رأسه وقال :

ـ لكنّي أحبّ أن أسمعه منك ثانية .

قلت بإصرار : سيصبح كلّ الناس أغنياء .

في تلك اللحظة ، رفع الشيخ يده إلى لحيته ، وانتزعها . . . ، ثمّ مسح بعض الأصباغ عن وجهه ، ونهض من مكانه ، فتبيّنته تماماً . إنّي أقف أمام جلالة السلطان ، سلطان البلد بذاته . المفاجأة شلّت لساني فنسيت نفسي ، حتّى انتشلني صوته :

ـ هل عرفتني؟

فهويت أقبل الأرض ، وقلت :

نعم يامولاي .

الفصل الثاني

«السلطان جالس على عرشه والبهلول بين يديه»

السلطان : كفى كفّ عن الهراء فلن يقبل اعتذارك .

البهلول : يامولاي أنا مجنون ، والمجنون لايحاسب على أيّ مقال يصدر منه .

السلطان : «يضحك» كيف تثبت ذلك؟

البهلول : أرأيت يامولاي أنّ الناس مختلفون حول كلّ شيء ومتفقون جميعهم على تسميتي بالمجنون .

السلطان : «يهزّ رأسه ساخراً» المجانين لايقولون مثل هذا الكلام .

البهلول : يامولاي السلطان ألم تسمع بمجانين نطقوا حكماً ومواعظ عبر التاريخ .

السلطان : «يقترب من الشحاذ» لم أر مجنوناً قطّ ينطق بالحكمة ، ويعرف التاريخ . أيها الحارس «يستدير جهة الباب الخارجي» إنّي أصدر الأمر التالي وعليكم تنفيذه .

الحارس : «نعم يامولاي» .

السلطان : بلغ الوزير انّ البهلول أصبح سلطاناً للبلد مدّة أربع وعشرين ساعة من الآن.

الحارس : أمرك مطاع يامولاي . . . «يخرج».

السلطان : «للبهلول» إن لم تنفّذ وعدك نلت العقاب الصّارم.

ينصرف السلطان خارجاً. يبقى البهلول وحده. يتطلّع في الجدران، يستدير جهة الجمهور يبتسم. ينادي على كبير الحراس».

الحارس : «يدخل» نعم ياجلالة السلطان.

«يظلّ السلطان صامتاً يحدّق فيه لحظة، فيعيد الحارس سؤاله: هل من أوامر ياجلالة السلطان».

البهلول : أطلب لي الوزير.

«ينحني الحارس. يخرج. يبقى السلطان يحدّق حوله، ويلمس الأثاث أو مسند الكرسي. يدخل الوزير. ينحني، ثمّ يتكلّم» . .

الوزير : نعم ياجلالة السلطان؟

البهلول : ماهي آخر أخبارك.

الوزير : أدام الله جلالة السلطان وعزّه . . .

البهلول : اختصر فليس لدّي وقت أضيّعه بالمقدّمات.

الوزير : «يخرج ورقة مطوية من إحدى جيوبه. يفضّها ويقرأ» الساعة العاشرة استقبال الوفود الرسميّة وسفراء الدول الأجنبيّة لتقديم تهانيهم. الثانية عشرة الغداء

مع الوزراء. الثالثة زيارة المركز العام لإلقاء كلمة في حشدٍ من المواطنين الذين حضروا للتهنئة...

البهلول : «بضجر» كفى كفى، ألا تعرف أنّ وقتي ضيّق للغاية.

الوزير : لكنْ ياجلالة السلطان. المواعيد المذكورة ثبتت من قبل وإلغاؤها يسبب إرباكاً للدولة، كما أنّ تأجيل بعضها أو رفضه يزجّنا في مشاكل مع بعض الدول الأخرى.

«يطرق السلطان قليلاً، كأنّه يفكر بأمر ما، ثمّ يغادر عرشه، يتمشى قليلاً والوزير على بعد خطوات منه يقلّب في الورقة».

البهلول : تذكّر أنّ وقتي ضيق للغاية.

الوزير : سأفعل ماتأمرني به يامولاي.

البهلول : قل لي: هل تستطيع أن تحصي لي عدد الفقراء ومن لا مأوى لهم...

الوزير : إنّ ذلك يتطلّب وقتاً طويلاً...
عليك أن تتقيدّ بأربع وعشرين ساعة فقط.

الوزير : مولاي، أدام الله عزّك، أتعرف كم أحتاج من الوقت لكي أسافر إلى أقصى مكان في السلطنة؟

البهلول : نعم، كم يقتضي ذلك؟

الوزير : ستّ ساعات يامولاي، فكم من الساعات أحتاج حتّى أصل إلى أقصى نقاط الشرق والغرب، والشمال

والجنوب، ثمّ أبدأ . . .

البهلول : أوه إنّك تضخّم الأمور وتهوّل المسألة .

الوزير : «ينحني» معذرة يامولاي لكنّي أقول الحقيقة من غير زيادة ولانقصان .

البهلول : لقد وعدت الناس بتحقيق أمانيهم .

الوزير : «يبتسم ابتسامة غامضة» اترك الأمر لي يامولاي .

البهلول : حسناً ستنوب في استقبال ضيوف العاشرة بدلاً منّي . «ينحني الوزير» وكذلك في إلقاء كلمة بالناس .

الوزير : أتسمح لي بسؤال يامولاي؟

البهلول : أجل أجل . . .

الوزير : ولي معه الأمان؟

البهلول : بالطبع شرط أن تساعدني في تحقيق وعدي .

الوزير : أنا يدك اليمنى يامولاي . سوف أنوب عنك في بعض الأمور لأوفّر لك وقتك الثمين، لكنْ تعرف، أقول: إنّك سلطاننا الجديد فبأي اسم، نصدر المراسيم يامولاي؟

البهلول : آه . . . تلك مسألة غفلت عنها «بعد تأمل قصير» كان اسمي السابق البهلول .

الوزير : «ينحني» أدام الله عزّك «يهمّ بالخروج» .

البهلول : لحظة أيّها الوزير .

الوزير : «ينحني» هل من أمر آخر .

البهلول : أعتقد أنّ اسم البهلول لايليق بجلالة السلطان.

الوزير : كما شئت يامولاي.

البهلول : هل في بالك ياترى اسم معيّن.

الوزير : الأسماء كثيرة غير أنّي لا أرغب في أسبق جلالتكم.

البهلول : إنّك على حق فكلّ الناس يولدون باسمائهم إلا أنا...

الوزير : تلك هي المشكلة يامولاي؟

البهلول : «قاطباً» أيّة مشكلة تعني.

الوزير : وددت أن أذكرك بمشكلة الزمن الذي حددت نفسك به وعلاقته بالاسم المقترح لجلالتكم.

البهلول : أدرك من كلامك أن يرتبط الأثنان!!

الوزير : إن كنت تصّر يامولاي على معرفة رأيي فأنا أبدي نصحي فقط.

البهلول : لاتظنّ أنّي غضبت.. تستطيع أن تتكلّم بصراحة...

الوزير : مادمت حددت مدّة حكمك بأربع وعشرين ساعة فعليك يامولاي أن تستعير اسماً من المخلوقات أو الأشياء التي لاتعمرّ أكثر من يوم واحد فقط، لكي يتناسق اسمك مع الزمن.

البهلول : ماذا؟ «يقطب حاجبيه» أيّة ورطة أوقعت نفسي بها.

الوزير : أشرت عليك يامولاي بالنصّح فقط فأنا لاأتدخل بشؤون السلطان إلاّ ضمن واجبي...

البهلول : «يتحدّث غير ملتفت إليه» الأشياء التي تعيش أقلّ من

أربع وعشرين ساعة، حتّى الفراشات والحشرات تعيش أطول.

الوزير : أبعد الله الهمّ عن جلالة مولاي السلطان، فهناك كثير من الأشياء الجميلة تملأ الطبيعة وتسحرنا بجمالها فتظلّ نتحدّث عنها وكأنّها موجودة معنا!!

البهلول : «بعد تأمّل» وجدتها... سجّل عندك «قوس قزح».

الوزير : إنّه اسم جميل.

البهلول : أوْ... انتظر لحظة.

الوزير : هل ثمّة أوامر أخرى..

البهلول : «يردّد» «قوس قزح»، «قوس قزح» اسم جميل لكنّه تقليدي..

الوزير : مادام يطابق الحال ومادمت قد عثرت عليه مصادفة فهو اسم مناسب لأنّ خير الأمور ماجاءت طبيعيّة أو عثرنا عليها مصادفة وفق تلك القاعدة يامولاي فإنّ اسم جلالتكم غير مفتعل أو قابل للطعن ولايمكن أيّ مخلوق أن ينال منه بعيب.

البهلول : لن أغيّره كلّه سأغير نصف المصادفة ليس إلّا.

الوزير : وهل استقرّ رأي جلالتكم على «القوس» أمْ «قزح».

البهلول : على الجزء الأوّل... اجعله قزح الألوان!!

الوزير : لك الأمر ياجلالة السلطان «يهمّ بالخروج».

البهلول : أنتظر لحظة «يقف الوزير بانتظار الأوامر يستمّر

السلطان في حديثه».

أتعرف شيخ الخربة؟!

الـوزيـر : نعم يامولاي. لقد فتحنا عيـوننا فـوجدنـاه كما هـو.. رأينـاه جالسـاً في خربتـه لايتحرّك والنـاس يتحرّكـون حوله وهم ينشدون. يبكون أو يضحكون.

البهـلول : لقد رأيته مثلكم. فتحت عينيّ على النور فـوقع بصري عليه كما هو، وأنت عاصرت ملوكـاً قبلي، قبـل ولادتي أيضاً، فهل تعرف بالضبط متى وجد في مكانه؟!

الـوزيـر : ربّما أعرف تواريخ الملوك ونهاياتهم بحكم عملي، وربّما أعـرف أكـثر منـك بحكم السنّ لكنّي لستُ الـوحيـد الذي أجهل زمان الشيخ فقد سألت جدّي عنه عندما كنت شاباً فعجز هو أيضاً عن الجواب.

البهـلول : حسنٌ. إنّي آمرك أن تجلبه لي، إلى هنا، وتصدر أمراً في الوقت نفسه بإلقاء القبض على السلطان السابق.

«يخرج الوزيـر. يبقى السلطان وحده. يخـطو في الفناء ذهاباً وإياباً، وهو يفكّر بقلق ثمّ يحدث نفسه».

انصرم من الوقت عشر ساعـات استهلكتها في نقـاش مع الوزير حول جـدول للمواعيـد، وتغيير «اسمي في هذه الأثناء يدخل السلطان السابق».

السلطان السابق: لست في حاجة لإلقاء القبض عليّ، ها أنا أجيئك بنفسي.

البهلول : «يتمعّن فيه باستهزاء» ها أنت قد وقعت.

السلطان السابق : إنّك واهم، ومازلت تعيش في الخيال.

البهلول : تذكّر جيداً إنّك انت الذي جئت بي...

السلطان السابق : «مقاطعاً» عليّ أن أشرح لك الأمر بالتفصيل، فلم أكن لأظنك بهذه السذاجة.

البهلول : تذكّر أنني السلطان..

السلطان السابق : بقي أمامك نصف يوم فقط.

البهلول : «منفعلاً» قل لي ماذا تريد؟

السلطان السابق : «محتدّاً» قل لي أنت ماذا تريد؟

البهلول : من حقّي أن ألقي القبض عليك مادمت أملك الأمر لكي...

السلطان السابق : لكي لاأتمكّن منك بعد أن تنتهي مدّة حكمك.

البهلول : لم تجانب الصواب.

السلطان السابق : لكّنك واهم.

البهلول : لاتتحدّث بالألغاز.

السلطان السابق : إنّ الأمر يحتاج إلى تفسير.

سوف لن أحاسبك أنا بل الناس الذين وعدتهم، وتذكّر أنّك وعدت الناس كلّهم وليس فقط سكان سلطتنا.

البهلول : «يجلس متعباً على عرشه» ثمّ ينفث الهواء بعمق».

غير أنّي أجهل لحدّ الآن لِمَ اخترتني أنا من دون سائر أفراد سلطنتك؟

السلطان السابق : لأنّك كنت تمثّل الحلم المشاع. ألم تدرك استغراب الآخرين يوم جئت إليهم تحمل قطعة النقود اللامعة حينذاك شعرت أن وقتي يوشك على النهاية، فاخترتك لأسباب أهمها أنّك كنت تنصت ولاتتكلّم...

البهلول : ها أنا أنصت ولا أتكلّم...

السلطان السابق : «مقاطعاً» ليس هذا بالشيء القليل.

نعم ليس هو بالشيء القليل.

إنّك مخزن للأسرار ولا أحد يعرف عنك شيئاً على الاطلاق.

«يدخل الوزير ثانية. ينحني».

الوزير : لم يجد الحرّاس شيخ الخربة يامولاي. لقد ذاب كما يذوب الملح في الماء والبلد كلّها..

البهلول : لحظة واحدة... «ينادي» أيّها الحارس «يدخل.. ينحني».

اصحب هذا «يشير إلى السلطان السابق. ينفذ الحارس الأمر. يخرجان».

الوزير : «مندفعاً بقلق» البلد يامولاي في ضجّة واضطراب.

البهـلول : ماذا؟ هل يُعقل ماتقوله . . .

الـــوزيـر : «يسـارع إلى المقاطعـة» تستـطيـع أن تتـأكـدّ بنفسـك يامولاي .

البهـلول : لقـد تركتُهم صـامتين لاينـطقـون كـأنّ عـلى رؤوسهم الطير.

الـــوزيـر : بل هم الآن يتكلمون !!

البهـلول : وما الأمر الذي يشغلهم .

الـــوزيـر : حسب ماجمعه خاصتنا عبر العيون من معلومـات تثبت التقارير أنّ النّاس في اضطراب ، فبعد اختفاء البهلول اختفى شيخ الخربة الصّوفي ، تمّ ذلك في أقلّ من أربعٍ وعشرين سـاعة ممّـا ظنّه النّـاس علامـة شؤم ، أو بادرة لحدثٍ خطر ، فجمعوا أمرهم ، وهم الآن في طـريقهم إلى القصر .

البهـلول : علينا أن نفكّر أوّل الأمر باختفاء الشيخ الغامض .

الـــوزيـر : مولاي هناك حكايات متضاربة حول غيابه ، وأظنّ أنّ حيرة النّاس بغيابه بعد ثباتـه كلّ تلك السنـين الطويلة أكبر من حيرتهم بغيابه هو بالذات .

البهـلول : إنّي أسألك ماذا يقولون حوله؟ .

الـــوزيـر : منْ البهلول أم الشيخ ؟

البهـلول : إنّي أتحّدث عن الشيخ !!! .

الـــوزيـر : بعض النّاس يظنّه هاجر إلى البهلول ليعلنا ظهورهما في

الوقت المناسب، آخرون يتصوّرون أنّه انتقل إلى عالم الجنّ، وهناك أناسٌ عدّوا غيبته علامة نحس أو بداية فأل.

البهلول : وماذا عن الجوقة؟ هل اختفت معه؟.

الوزير : بقيت تلفّ مكانها، كأنّ الشيخ باقٍ في موضعه، تدقّ الطبل وتنشد كعادتها. كأن شيئاً لم يتغيّر تماماً.

البهلول : «ينفث الهواء أشبه بالمتحسّر» اجمع عليك حالك، وفكّر معي جيداً.

الوزير : أنا معك يامولاي طول الزمن الذي طلبته لنفسك.

البهلول : لا أقصد أن أحمّلك فوق طاقتك. أريد فقط أن تدرك وفق خبرتك الطويلة مايطلبونه.

الوزير : شيء واضح يامولاي أنّه عودة الاثنين البهلول وشيخ الخربة.

البهلول : «يهزّ رأسه ببطء، يبتسم ابتسامة مرّة. يحدّث نفسه»، البهلول والشيخ. البهلول والشيخ.

الوزير : «وقد شاركه سرحانه» نعم يامولاي البهلول والشيخ.

البهلول : «بضحكة جادّة، نصف مقطوعة» جاؤوا يطلبون شيئين إذن أحدهما الحكومة ذاتها، والآخر شيء مبهم لايفهمونه ولا تدركه المخلوقات على الأرض جميعها...

الوزير : لقد أدركت الداء يامولاي.

البهلول : «محتداً» كيف أحضر لهم شيئاً لا أفهمه أنا نفسي.
«صخب وضجّة يأتيان من خارج القصر، هتافات مبهمة. أصوات حادّة. يدخل الحارس» . .

الحارس : مولاي وصل حشد ضخم من النّاس. إنّهم يطلبون من الدولة أن تتعهد بالتحقيق في اختفاء البهلول والشيخ الصوفي.

البهلول : حسناً طمأنهم الآن.

الحارس : إنّهم لن يعودوا إلى بيوتهم كما يدعون إلّا مع الاثنين.

البهلول : أخبرهم أنّ السلطان نفسه سيتحدّث إليهم.
«الحارس ينحني ثمّ يخرج. يشير إلى كرسي قريب من عرشه. يجلس الوزير» لنناقش الأمر بهدوء.

الوزير : لقد حدّدتني بالوقت يامولاي.

البهلول : مادام الزمن عدوّي وعدوّك، فأنا وأنت نستطيع أن نتعاون لنقهره. .

الوزير : عمري الآن يامولاي ستّون سنة، قضيت منها أربعين عاماً في خدمة السلطنة، خدمت باخلاص عشرة سلاطين قبلك لم أخن أيّاً منهم، وكنت أنفّذ الأوامر دائماً، والبرهان القاطع على كفاءتي إنّي بقيت في مناصبي إلى الآن.

البهلول : لا وقت لدينا نضيعه في التفكير. آمرك أن تحصي الأموال، ولن أتركك وأذهب كما فعل السلاطين

الذين حكموا من قبلي.

الـوزيـر : أنت أوّل سلطان يحدّد نفسه بالزمن يـامولاي وعـليّ أن أنفذ أوامرك خلال مابقي لك من وقت، فإذا انصرفت المدّة فلا أمر لك عليّ، ولا طاعة لك مني.

البهـلول : حسن، تعجّل فيما تستطيع جمعه من أموال، وليأتِ إليّ الحارس.

«يخرج الوزير، يدخل الحارس».

الحـارس : مولاي.....

البهـلول : أذع في النّاس أنّ البهلول قادمٌ لهم مع كثير من الأموال بعد ساعة.

الحـارس : وماذا عن الشيخ الصوفي يامولاي؟..

«يطرق البهلول مفكراً.. يدخل الوزير».

كـلّ شيء جاهز بالباب يامولاي..

البهـلول : كم بقي من الوقت.

الـوزيـر : ليس أكثر من دقائق.

البهـلول : هيا نذهب إليهم.

الـوزيـر : لكني سأرجع حين تنتهي الدقائق يامولاي.

البهـلول : «للحـارس، متجاهـلاً كلام الـوزيـر»، تستـطيـع أن تجلس هنـاك «مشيراً إلى العـرش»، أو أيّ فرد بعـد أن تنتهي الدقائق المحدّدة. «يخرجان»، «يدخل السلطان السابق مباشرة».

السلطان السابق : أوشك كلّ شيء على النهاية .

الحارس : نعم ماذا تريد . . . ؟!

السلطان السابق : «باستغراب» إنّي «بحدّة» آمرك بالقبض على قزح الألوان .

الحارس : مازال في الحكم عشر دقائق .

السلطان : إذن لتلقوا القبض عليه مباشرة . . هيّا . .

الحارس : مادام جلالته قد أصدر أمره بتعييني وكيلاً له خلال هذه الدقائق الحرجة فإنّي ألقي القبض عليك حالاً .

السلطان : «بغضب» أظنّك جننت أيها الحارس الوقح .

الحارس : عليك أن تخاطبني بصفتي وكيل جلالة السلطان .

السلطان : ماذا أسمع؟ هل يعقل الأمر؟ «ملتفتاً إلى الحارس» ألم تتفق معي على لعبة الزمن بصفتك حارسي الأمين؟ .

الحارس : «يضحك ساخراً» لكنّي لا أؤمن جانبك . لعبت لعبتك مع البهلول حين أحسست بالخطر، فحاولت عبر الزمن الضيق أن تمتصّ النقمة المحدقة بك لأنّ نهايتك أصبحت قريبة .

السلطان : ماكنتُ لأقدم على الأمر لولا ثقتي بك .

الحارس : أمّا أنا فلن أثق بمن يراهن على الزمن .

السلطان : شيء حسن، لكنْ قل لي كم سنة مرّت عليّ وأنت هنا في خدمتي منذ أن ارتقيت أنا العرش؟ .

الحارس : عشرون أو يزيد بقليل .

السلطان : «بشيء من الحدّة والرجاء واليأس» عشرون عاماً أو أكثر، وأنت في البلد الرجل الثالث اسمك يأتي بعد اسمي واسم الوزير وأراك الآن غير راض عن . .

الحارس : لاتنسَ أنّ لكلّ شخص مهما كان غبياً أو ذكياً طموحاً يدفعه إلى المضي نحو الأفضل . .

السلطان : أنا معك . تستطيع أن تتولّى منصب الوزارة والحراسة .

الحارس : «يضحك، ويتطلّع في ساعته» انظر كيف تخليت عن الوزير الآن وأنت في شدّتك، فمن يضمن لي ألّا تغدر بي؟ .

السلطان : لك ماشئت من الضمانات .

الحارس : ضمانات «يضحك ضحكة استهزاء» تتحدث عن الضمانات في أثناء التفافك حول الوقت لتقطعه عنّي .

السلطان : «برجاء» سأوافق على أيّ اقتراح ترتأيه من دون قيد ولا شرط .

الحارس : لم أكن لأثق بك والوقت أمامي فسيح ، فكيف أثق عبر زمن ضيق، لابقاءَ إلّا لواحد منّا أمّا أنا أو أنت .

السلطان : «يجثو» استميحك أن تملي شروطك .

الحارس : لعبة زمنية أخرى ليس من صالحي أن ألعبها . . أيها الحارس «يدخل الحارس . ينحني» .

الحارس الجديد : «نعم يامولاي وكيل جلالة السلطان» .

الحارس : خذ هذا الرجل واضرب عنقه خلال لحظات «يلقي

الحـارس القبض عـلى السلطان السـابق» لاتنسَ أن تطلق سراح شيخ الخربة بعد أن تطيـح برأسـه «مشيراً إلى السلطان السابق» ثمّ ادع لي الوزير.

الحارس الجـديـد : أمرك مطاع يامولاي . . .

«يبقى الحارس وحده. ينظر في ساعته حيث يقف أمام كـرسي العرش، فيضـع الساعـة أمـام عينيـه. يحـدّق بالزمن طويلاً. يُسمع صوت ساعة. يجلس مع دقّاتهـا على العرش».

الـوزيـر : أدام الله عزّ مولانا السلطان.

الحـارس : هـل أرجعت الأمـوال التي حـاول المعتـوه البهلول أن يوزّعها على النّاس إلى أماكنها.

الـوزيـر : معظمها فقد . . .

الحـارس : لابـدّ أن يضيع منهـا شيء ما. أنـا أدرك ذلـك جيـداً. المهمّ هل هناك من صخب بعد؟.

الـوزيـر : كلاّ يامولاي، ففي آخر لحـظة نسي النّاس كـلّ شيء، شغلتهم عودة البهلول وشيخ الخربة عن التفكير.

الحـارس : «ينفث الهواء بعمق» لنتحدث الآن بهموم الدولة . . .

«يفتـح الـوزيـر ورقـة مـطويـة، يقـدّمهـا بـانحنـاءة للسلطان».

ســـــتار

كوبنهاغن

في ١٩٩١/١٢/٣٠

الفهرس

آخر رحلة للسندباد ٥

المنسي ٤١

عزيزي درويش ٧٣

البلهلول - رواية مسرحية ١٢١

تصميم الغلاف : طالب الداوود